

دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع
طرابلس . لبنان ص.ب ٥٧ هاتف : ٦٢١٩٥٩ - ٦٢١٢٨٤
تلكس ٢٣٧٧٨ LE عصام

من سلسلة البؤساء

كوزيت

تأليف الكاتب الفرنسي الكبير

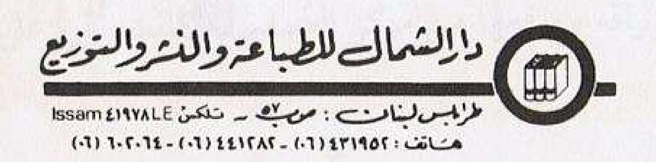
ڤيكتور هيغو

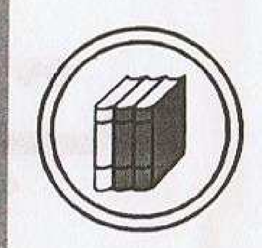
أشرف على التعريب

ناصر عكاري

مراجعة

سيف الدين الخطيب





دار الشمال

للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس - لبنان - فاكس : ٦٠٢٠٦٤ - ٦ - ٩٦١
التل - عرجة سنتر : ٤٣١٩٥٢ - ٦ - ٩٦١
المعرض - بناية لا سيتيه : ٦٠٢٠٦٤ - ٦ - ٩٦١
الصاغة : ٤٤١٢٨٢ - ٦ - ٩٦١
خليوي : ٠٣/٢٦٦٣٤٠٠

الطبعة الثانية
١٩٩٦

خلاصة الجزء الأول «فَانتين»

«جان فالجان» يُعيلُ أُخته وأولادَ أُخته السّبعة. وفي شتاءٍ شديدِ البرودةِ وَجَدَ العاملُ الشّابُّ نفسَه دون عمل. كان الصّغار جائعين فسرقَ لهم رغيف خبز. إعتُقلَ وحُكم عليه بالسّجن خمسَ سنواتٍ وأُرسلَ الى سجن «طولون».

حاولَ السّجينُ الهربَ كرفاقِه فقُبض عليه وحُكم عليه مُجدّداً عدّةَ مرّات. وعندما أُطلق سراحُه سنة ١٨١٥، كان قد قَضى تسعةَ عشرَ عاماً في السّجن.

ومن «طولون»، سافر السّجينُ السّابقُ مشْياً على الأقدام الى «بونتارلييه» ومنها الى «فافرول» حيثُ كان يأملُ أنْ يلتقيَ بأُختِه وأولادها. وفي كلّ القرى التي كان يتوقّف فيها، كان عليه أنْ يُبرزَ أوراقه ويوقّعها من مركزِ العُمدة. وكانت تُقرأ على تلك

الأوراق عبارةُ «رجل خطر» فكان النّاسُ يخافون منه ويطردونه من كلّ مكان.

وفي «ديني»، وهي مدينةٌ في جبال الألب المنخفضة إستقبله فقط أسقفٌ يُدعى السيد «ميريك». لكنّ الحقدَ على جميعِ النّاس كان قد تمكّن من قلب «جان فالجان» فسرقَ فضّياتِ الأسقف. أوقفتْهُ الشّرطة لكنّ الأسقفَ أنقذَهُ وأعطاه كُلَّ ما بقيَ لديْه.

إختفى «جان فالجان» ثمّ عاد للظّهور في شمال فرنسا وعلى التّحديد في «مونتراي سيرمار»، تحتَ اسم السيد «مادلين». إنّه الآن رجلٌ طيّبٌ يُحاولُ أنْ يتبعَ الطّريقَ القويم.

وبفضلِ ذكائه وعملِه عُيِّنَ السيد «مادلين» عُمْدةَ المدينة. لقد أثرى ويستطيعُ أنْ يُساعدَ البؤساءَ أكثرَ فأكثر؛ ومن بينهم رجلٌ عجوزٌ يُدعى «فوشليفان» أمّنَ له عملاً عند راهباتٍ في باريس، وامرأةٌ فقيرةٌ تُدعى «فانتين».

كانتِ هذه الأخيرةُ قد اضطرّها العَوَزُ لأنْ تعهدَ بابنتِها الصّغيرة «كوزيت» إلى أصحابِ نَزْلٍ هم «آل تناردييه»؛ توسّمتْ فيهمُ الطّيبة، بينما هم في الحقيقة أُناسٌ أشرار. كانوا

يضربون الطّفلةَ ويُجبرونها على العمل كما لو كانتْ كبيرة.

قرّر السيد مادلين أنْ يُعيدَ الصّغيرةَ لأُمّها، لكنّ هذه الأخيرة اعتقلتْ ظُلماً من قِبَلِ شرُطيٍّ يُدعى «جافير» فأُصيبتْ بمرضٍ عُضال. كان «جافير» يشكّ في أنّ السيد «مادلين» وجان فالجان هما شخصٌ واحد.

وكي لا يتركَ رجلاً آخر يُحكَمُ عليه بدلاً منه، إستعاد مادلين اسمَه القديم. وماتتْ فانتين في اللّحظةِ التي أتى فيها «جافير» لاعتقال «السيد العمدة». ورغم ذلك فقدِ استطاعَ «جان فالجان» أنْ يقضيَ ليلةً في غابةِ مونغارماي حيثُ يبدو أنّه خبّأ شيئاً ما هو بدون شك مبلغٌ من المال ثم حُكمَ عليه بالسّجن المؤبدّ وأُعيدَ إلى «طولون».

نحن الآن في عام ١٨٢٣.

السّلسلةُ تتحطمُ بضربةِ مطرقة

في أواخرِ تشرين الأول من عام ١٨٢٣، رأى سكّانُ «طولون» المركب «أوريون» يعودُ إلى مرفأهم لحاجتِه إلى التّصليح.

إنّ المركبَ الحربيّ في المرفأ يجتذبُ إليه كثيراً من الفضوليّين، فالنّاسُ يحبّون كلّ ما هو كبيرٌ وعظيم. كانتْ أرصفةُ ميناء «طولون» إذن مُغطّاةً بالفضوليّين عندما تعثّرَ رجلٌ ذاتَ صباحٍ على الصّاري الكبير في أعلى المركب. حملَ الرّأسُ الجسمَ فامتدّتِ اليدان وتعلّقتا بحبلٍ فتدلّى الرّجلُ في الفراغ. كان يتأرجحُ كحجرٍ في نهايةِ ذلك الحبل، فصرخَ الفضوليّون.

كانتْ مُساعدتُه تعني السّعي إلى الموت، فلم يجرؤْ أحدٌ على ذلك. تعبَ البائسُ فظهرَ الخوفُ على وجهه ولم تنفعِ الجهودُ التي بذلها للصّعود إلاّ في زيادةِ حركةِ الحبل. لم يعدِ النّاس ينتظرونَ سوى لحظةِ سقوطِه.

فجأةً صعدَ رجلٌ، يرتدي ملابسَ حمراء: إنّه محكومٌ بالسّجن المُؤبّد. إنتزعتِ الرّيحُ قُبّعتَه فظهرَ رأسهُ الأبيض. إنّه ليس شاباً.

عند حصولِ الحادث سأل رئيسَه عمّا إذا كان يستطيعُ مُحاولةَ إنقاذِ الرّجل. ثمّ كسرَ سلسلتَه بضربةِ مطرقة فانفتحتْ بسهولة.

وفي لحظةٍ كان فوقَ الصّاري حيثُ توقّفَ (نادى الرّجلَ من أسفل مرّةً أخيرة) فرفعَ السّجينُ عينيْه إلى السّماءِ وتقدّمَ خطوة، وقطعَ الصّاري جرياً وربطَ إليه طرفَ حبلٍ كان حملَهُ معه ورمى بالطّرف الآخر. ثم بدأ ينزلُ على الحبلِ مُستعيناً بيديْه. وحينئذٍ رأى النّاسُ رجليْن يتدلّيان فوقَ البحر بدلاً من رجلٍ واحد.

التفتتْ ألفُ عينٍ إلى الرّجليْن، ولم تُسمع أيّةُ صرخةٍ أو كلمة، بل إنّ الأفواه حبستْ أنفاسَها.

وأخيراً شُوهدَا يتسلّقانِ الصّاري، توقّف العجوزُ لحظةً كي يسمحَ للآخر باستعادةِ قُواه، ثم أخذه بين ذراعيْه وحملَه وسارَ به على الصّاري فسلّمه إلى رفاقه.

وفي هذه اللّحظةِ تعالتْ صيحةٌ مدويّة، كان هنالك خمسُ مئةِ صوتٍ تطلب:

«ألحريّة! ألحريّة لهذا الرّجل!»

أمّا هو فقد شرَعَ في هذه الأثناء بالنّزول نحو المساجين الآخرين الذين يعملون على ظهر السّفينة، وركضَ على الصّاري الصّغير. كانتْ كُلُّ العيون تتبعُه. وفي لحظةٍ من اللّحظات بدا كمن أُصيبَ بالدّوار فسقطَ في البحرِ بجانب مركبٍ آخر هو «الجزيرة».

لم يصعدِ الرّجلُ ثانيةً فجرى البحثُ عنه حتى المساء ولم يُعثر حتى على جُثّته.

وفي اليومِ التالي الواقع في ١٧ تشرين الثاني ١٨[illegible]، كتبتْ صحيفَةُ طولون ما يلي:

«سقطَ أحدُ المحكومين بالسّجن المؤبّد الذي كان يعملُ على ظهرِ المركب «أوريون» في البحرِ بعد أنْ أنقذَ حياةَ رجل. كان يحملُ الرّقمَ ٩٤٣٠ ويُدعى جان فالجان.

* * *

الميَاهُ في مونغارمَاي

في العام ١٨٣٣ كانتْ «مونغارماي» قريةً تمتدُّ طولاً وسط الغابات، والطّريقُ التي تجتازُها لا تقودُ إلى أيّ مكان. إنّ المرءَ ليُصادفُ فيها بعضَ الدّورِ القديمةِ الجميلة، لكنّها نادرة. ألحياةُ فيها سهلة، وكلّ شيءٍ فيها رخيص. ومع ذلك فلقد كان الماءُ فيها قليلاً يتوجّبُ إحضارهُ من أمكنةٍ بعيدة. كان سكّانُ جنوبيّ القرية يأخذونه من بِرَكٍ كبيرة، أمّا الآخرون السّاكنون في الشمال قُربَ الكنيسة فقد كانوا لا يجدون ماءً عذباً إلاّ في نبعٍ صغيرٍ في الغابةِ على مسيرةِ رُبعِ ساعةٍ من «مونغارماي»:

وهكذا فإنّ إحضارَ الماء كان عملاً شاقّاً. لذا فالبيوتُ الكبيرة، ومنها نَزْلُ تينارديه، كانتْ تدفعُ ربعَ قرشٍ لأحدِ الرّجال ثمناً للدّلو الواحد. لكنّ ذلك الرجل لا يعملُ بعدَ السّاعةِ السّابعة مساءً في الصيفِ والخامسة في الشتاء. وعندَ

حُلولِ اللّيل كان مَنْ يعوزُه ماءُ الشرْب يذهب بنفسِهِ لإحضاره أو يستغني عنه.

وعند آل تيناردييه فنٌّ إحضار الماء كان عملُ طفلةٍ مسكينةٍ هي الصّغيرة «كوزيت» التي كانتْ مُزدوجةَ النّفعِ لهم إذ كانوا يقبضونَ من الأمّ ويستخدمونَ الإبنة. لذا عندما توقّفتِ الأُمّ عن الدّفع، إحتفظوا بكوزيت التي كانتْ تقومُ بمقامِ الخادمة. كانتِ الإبنةُ تخشى الذّهابَ ليلاً إلى النبعِ وتُعنى بألاّ يُفقدُ الماءُ أبداً في الدّار.

في ٢٤ كانون الأول ١٨٢٣. لم يكنِ الثّلج قد تساقطَ بعد في مونغارماي، فبدايةُ الشّتاء كانتْ مُعتدلة، لذا نصبَ الباعةُ المتجوّلون خيامَهم في ساحةِ الكنيسة وحتى في شارعِ الخبّاز حيثُ يوجدُ نزلُ تيناردييه، مّما أضفى شيئاً من الحياةِ على تلك القريةِ الهادئة.

وفي أمسيةِ عيدِ الميلاد جلس عدّةُ رجالٍ إلى الطّاولات في قاعةِ نزلِ تيناردييه الكبرى يشربونَ الخمرةَ حولَ أربعةِ أو خمسةِ قناديل. هذه القاعةُ تُشبه كلَّ قاعاتِ الفنادق بطاولاتِها وزجاجاتِها وأقدامِها وزبائنها من الشّاربين والمدخّنين. كانَ هناك نورٌ قليلٌ وضجّةٌ كبيرةٌ وكانتِ الزّوجةُ تيناردييه تطهو الطّعامَ أمامَ نارٍ جيّدة بينما كانَ الزّوجُ يُعاقرُ الخمرةَ مع الزّبائن.

آل تيناردييه

إنّ معرفتَنا بآل تيناردييه لا تزالُ غيرَ كاملة، وها قد أتتْ لحظةُ التّعرّف عليهم بشكلٍ أفضل.

لقد أكملَ الزّوجُ تيناردييه الخمسينَ من عُمره أمّا زوجتُه فهي تُقاربُ الأربعين..

إنّ القرّاء يذكرون دون شك تلكَ المرأةَ الطّويلةَ السّمراء، الحمراء، السّمينة المربّعة. إنهّا تقومُ بكلّ أعمالِ النّزل من الأسرّةِ إلى الغرف، إلى المطبخ، حتى أنها تصنعُ الصّحوَ والمطرَ. كوزيت هي خادمتُها الوحيدة وعندما تمرّ الزوجةُ تيناردييه يتحرّكُ كلُّ شيء: ألزّجاجُ والنّوافذُ والنّاسُ. إنّ لها لحيةٌ وتستطيعُ كسرَ لوحٍ خشبيٍّ بضربةٍ من قبضتِها. عندما يَسمعها المرءُ تتكلّم يقول: «هذا دركي!». وعندما يراها

تَضربُ كوزيت: «هـذه امـرأةٌ شرّيرة!». وفي لحظاتِ الإسترخاء تبدو إحدى أسنانِها خارجَ فمها.

أمّا الـزّوجُ تينـارديه فهـو رجـلٌ قصيرٌ، نحيلٌ، أصفرُ البشرة، بارزُ العِظام يبدو مريضاً رغم صحّته الجيّدة، ومن هُنا يبدأ كذبه. إنّه باسمٌ ومهذّبٌ مع الجميع تقريباً، حتى مع الفقير الذي يرفض أنْ يمنحهُ ربع قرش. يشرب مع كلّ مَنْ يمرّ بنزله ويدخّن غليوناً غليظاً. إنّنا نَذكرُ قولَه إنَّه كان جنديّاً وهو غالباً ما يقصّ على زبائنه كيف أنقذَ بمفرده ضابطاً أُصيبَ بجرحٍ خلالَ الحرب.

كان بوسعِ تيناردييه أنْ يغضبَ كزوجته، لكنّ ذلك نادِرُ الحدوث، وعند حُدوثه، يكون غضبُه أسوأ من غضبها، فتَعساً لمن يقعُ بين يديْه لأنّه من المستعدّين دوماً للإنقضاض على أوّل مَنْ يُصادفه. ومع كلّ ذلك فتيناردييه حذرٌ، صامتٌ عندَ اللّزوم ويتمتّع بذكاءٍ خارق.

كان كلّ قادمٍ إلى النّزلِ يقولُ عند رُؤيته للسيدة تيناردييه: «هذا هو سيد البيت!» لكنّه قولٌ خاطىء. إذ حتى السيدة لا وجودَ لها، فهو السيد والسيدة. إنّه يُوجّهها بكلمةٍ وأحياناً

بمجرّد إشارة، وهو بالنسبّةِ لها شبه ملك. لم تكنْ تُخطِّىءُ زوجها في أيّ شيء. وكان ذلك الجبلُ من الضّجيج والعظام يتحرّكُ بأمرة إصبع الرّجل الصّغير. أمّا هو فلم تكن تشغلُه إلاّ فكرةٌ واحدة: الإثراء، لكنَّه بقي، فقيراً. بل وأكثرَ من ذلك فقد كانَ مديناً بألف وخمس مئة فرنك سنة ١٨٢٣.

وبين تلك المرأة وهذا الرّجل كانت كوزيت كَذُبابةٍ عالقةٍ في خيوط العنكبوت، تصعد وتنزل وتَغسل وتُفرشي وتَفرك وتُكنّس وتَركض وتُحرّك أشياء ثقيلة، فتقومُ بالأعمالِ الشّاقّةِ رغمَ حداثةِ سنّها. كانتْ تتلقّى الضّربات وتسير في الشّتاء حافيةَ القدميْن. أمّا الضّربات فكانتِ المرأةُ مصدرَها، وأمّا القدمانِ الحافيتانِ فكان الزّوجُ سببهُما.

الرجالُ يحتاجون نبيذاً والجيادُ ماءً

وصلَ أربعةُ مُسافرين جُدد. كانتْ كوزيت رغمَ أعوامها الثمانية قد تألّمت كثيراً لدرجةٍ أصبحتْ معها تحلمُ كعجوزٍ حزينة. وكانتْ عينُها مُحاطةً بالسّواد بسببِ ضربةٍ من قبضة السيدة تيناردييه التي كانتْ تقولُ من وقتٍ لآخر: «أليستْ قبيحةً بهذا السّواد الذي يحُيطُ بعينها؟». فكّرتْ كوزيت أنَّ اللّيل قد هبطَ وتقدّم، وأنها قدِ اضطرّتْ لملء الأوعية في غرفِ المسافرين فنفدَ الماءُ من الدّار. ولحسنِ الحظّ لم يكنْ يُشربُ ماءٌ كثيرٌ في نزل آل تيناردييه.

رفعتِ السيدة تيناردييه فجأةً غطاءَ قِدر كانتْ تغلي على الفرن ثم تناولتْ قدحاً تُريدُ ملأه. رفعتِ الطّفلةُ رأسَها مُتتبّعةً كلَّ حركاتِ المرأة. لم يكنْ هناك سوى نصفِ قدحٍ من الماء فقالت المرأة: «لم يَعدْ هناك ماء!» ثم صمتتْ، فحبستِ

الطّفلةُ أنفاسَها وأكملتِ السيدة تيناردييه، وهي تنظرُ إلى القدح نصف الملآن: «هذا لا يهمّ! فسيكفي هذا القِدر».

عادتْ كوزيت إلى عملها لكنّها شعرتْ طيلةَ ربع ساعة أنَّ قلبَها يقفزُ بين ضلوعِها، فأخذتْ تحصي الدقائق المنقضية وهي تتمنّى أنْ يأتيَ الغد. ومن وقتٍ إلى آخر كان أحدُ الزّبائن ينظرُ إلى الشّارع ويصيح: «كَم الدّنيا مُظلمة!».

فجأةً دخلَ أحدُ الباعة من نزلاء الفندق وقال بصوتٍ قاس:

ــ لم يُعطِ جوادي ما يشربُه!

فأجابتِ السيدة تيناردييه.

ــ بل لقد أُعطي.

ــ إنّني أقول لك أنْ لا؛ أيّتها الأم.

عندئذٍ خرجتْ كوزيت من تحتِ الطّاولة وقالتْ:

ــ بلى يا سيدي، لقد شربَ الحصانُ ملءَ الدّلو، وأنا التي حملتْ إليه الماءَ، وحدّثته.

صاحَ البائع:

ـ هذا غيرُ صحيح . هَاكُمْ ابنةٌ بحجمِ قبضة اليد وتكذبُ كذبةً كبيرةً بحجمِ الدّار! إنّني أقولَ لك إنّه لم يشرب ، أيّتها الكذّابةُ الصّغيرة ، فعندما لا يشربُ لديْه طريقةٌ في الوقوفِ أعرفها جيداً .

كرّرتْ كوزيت بصوتٍ لا يكادُ يُسمع !

ـ إنّه قد شربَ حتى ارتوى .

فصاحَ البائعُ غاضباً :

ـ أُريدُ أنْ يُعطى جوادي ما يشربُه .

عادتْ كوزيت إلى تحتِ الطّاولة فقالتِ السيدة تيناردييه :

ـ حقاً إنّ هذا لعدل . فاذا لم يشرب هذا الحيوانُ فيجبُ أنْ يشرب .

ثم نظرتْ حولها وسألتْ :

ـ حسناً ، أينَ الكذّابة الآن؟

إنحنتْ فرأتْ كوزيت عند الطّرف الآخر للطّاولة ، تحتَ أقدام الزّبائن تقريباً وقالتْ لها :

ـ أيّتُها الكلبةُ التي لا تحملُ إسماً ، إحملي إلى الجواد ما يشربُه .

أجابتْ كوزيت بصوتٍ ضعيف :

ـ لكنْ لم يعد هناك ماءٌ يا سيدتي!

ففتحتِ المرأةُ البابَ الخارجيّ على مصراعيْه قائلةً :

ـ حسناً ، إذهبي وأحضري شيئاً منه .

خفضتْ كوزيت رأسَها وتناولتْ دلواً فارغاً من قرب الموقدة . كان الدّلوُ أكبرَ منها ، تستطيعُ الطّفلةُ أنْ تجلسَ في داخلهِ بكلّ سهولة .

عادتِ السيدة تيناردييه إلى فُرنها وهي تقول :

ـ في النّبع ماءٌ وليسَ الذّهابُ إليه بالأمرِ الصّعب!

ثم بحثتْ في إحدى الخزانات التي يوجدُ فيها قروش وملح وأضافتْ!

ـ خُذي واشتري عند عودتِك رغيفاً كبيراً من عند الخبّاز . هاكِ قطعةً من خمسة عشرَ قرشاً .

كان لكوزيت جيبٌ صغيرٌ في جانبِ ثوبها فأخذتِ القطعةَ المعدنيّة دون أنْ تَنبسَ ببنتِ شَفة ووضعتْهَا في ذلك الجيب. ثم وقفتْ والدّلوُ في يدها أمامَ الباب وكأنّها تنتظرُ أنْ يأتيها العون، فصاحتِ المرأة!

ــ هيّا، اذهبي!

خرجتْ كوزيت، وأُغلقَ الباب.

* * *

دميةٌ عَجيبَة

من الكنيسةِ حتى نَزْلِ تيناردييه تمتدّ حوانيتُ تبقى مُضاءةً بمصابيحَ صغيرةٍ حتى مُنتصفِ اللّيل. لكنّ المرءَ لم يكن لِيرَى أيّ نجمٍ في السّماءِ.

في الدكّانِ الأخير، تجاهَ بابِ نَزْلِ آل تيناردييه، وضعَ بائعٌ على فُوَطٍ بيضاءَ دُميةً طولُها قدمان، ترتدي ثوباً وردياً، لها شعرٌ حقيقي، وعينانِ زرقاوان واسعتانِ. هذه الدّميةُ كانتْ طولَ النّهارِ محطَّ أنظارِ الفتيات ممّن هُنَّ دون العاشرة. لكنْ لم تكُنْ في مونغارماي أمٌّ غنيّةٌ بالقدرِ الذي يُمكّنُهامن شرائِها لابنتِها. قضتْ إيبونين وأزيلما ساعاتٍ أمامَها، وحتى كوزيت نفسها تجرّأتْ على النّظرِ إليها من بعيد.

في اللّحظةِ التي خرجتْ فيها كوزيت ودَلوهَا في يدها، لم تستطعْ منعَ نفسِها من أنْ ترفعَ عينيْها إلى تلكَ الدّمية الجميلة،

أو «السيدة» كما تدعوها. توقّفتِ الطّفلةُ المسكينةُ إذ لم تكن قد رأتْ بعد هذه الدّمية عن كثب، فظهرَ الغِنى والجمالُ والسّعادةُ لِذلكَ الكائنِ الصّغيرِ البائس. نظرتْ إلى تلكَ الدّميةِ الجميلةِ الورديّة، وإلى ذلك الشّعر الذّهبي الجميل وفكّرتْ: «كم ينبغي لتلكَ اللّعبة أنْ تكونَ سعيدة!»

لم تستطعْ عيناها ترْكَ تلكَ الدّمية. فلقد كانتْ تعتقدُ أنها ترى السّماء. كانت هناك دُمىً أُخرى وراءَ الدّميةِ الكبيرة. حتى البائعُ الرّائحُ والغادي في المكان ظهر لها كآلةٍ مُسيّرة.

نسبتْ كوزيت كلَّ شيء عندما أعادَها صوتُ السيدة تيناردييه إلى الحياة:

ــ ما هذا أيّتُها الكلبة؟ ألم تذهبي بعد؟ إنتظري فسأضربُكِ ضرباً مبرحاً!

هربتْ كوزيت حاملةً دلوها بأقصى سرْعتِها.

الصَغيرةُ لوَحدهَا

يقعُ نزلُ تيناردييه في ذلك الجزءِ من القريةِ المجاورِ للكنيسة، فكانَ على كوزيت أنْ تذهبَ، لإحضارِ الماء، من نبعِ الغابة، قُربَ «شال».

طالما كانتْ هناك بيوتٌ أو حتى أسوارٌ فقط على جانبي الطّريق، سارتْ سيراً حسناً، فضوءُ مصباحٍ من خلالِ نافذةٍ يعني شيئاً من الحياةِ ووجودِ أُناس، الأمرُ الذي يُبعد عنها الخوف. ومع ذلك فقد تباطأ سيرُها وتوقّفتْ بعد أنْ تجاوزتِ البيتَ الأخير.

وضعتِ الدّلوَ أرضاً ومرّتْ بيدِها على شعرِها، فلم تعد الآن في مونغارماي بلْ أصبحتْ في الحقول. كانتِ البريّة سوداءَ أمامَها، فنظرتْ يائسةً إلى ذلك الظلّ المقفرِ من النّاسِ والمليءِ بالحيوانات. إنّها تسمعُها وهي تسير بين العشبِ

وتتحرّكُ على الشّجرِ. إستعادتْ عندئذٍ الدّلو وتمتمتْ: «هذا لا يهمّ، فسأقولُ لها إنّه لم يَعُدْ هناك ماء» ثم عادتْ أدراجها إلى مونغارماي.

توقّفتْ فجأةً، فلقد تراءتْ لها السيدة تيناردييه بفمِها الواسع كَفَتحةِ الفرن وبعينيْها الغاضبتيْن. ألقتِ الطّفلةُ نظرةً حائرةً أمامَها وخلفَهَا. ما العمل؟ ما المصير؟ وإلى أين تذهب؟ أمامَها السيدة تيناردييه ووراءَها كلّ حيوانات الغابات.

تراجعتْ أمامَ السيدة تيناردييه وعادتْ إلى طريقِ النّبع راكضة. خرجتْ من القريةِ وهي تعدو ودخلتِ الغابةَ وهي تجري، دونَ أنْ تلوي على شيء. ولم تُوقف جريَها إلاّ عندما ضاقتْ أنفاسُها. دخلتِ اللّيل قُدماً إلى الأمام دون أنْ تفكّر أو ترى وهي ترغبُ في البكاء.

كانتْ هناكَ مسيرةُ سبعٍ أو ثمانِ دقائقَ بين مدخلِ الغابةِ والنّبعِ، وكوزيت تعرفُ الطّريقَ لأنها غالباً ما سلكتْها نهاراً، فلم تَتِه، ومع ذلك لم تنظرْ يمنةً أو يَسرةً خشيةَ أنْ ترى ظلالاً في الأشجار. وأخيراً وصلتْ.

كان النّبعُ بعمقِ قدمينِ تقريباً، وكوزيت تعرفُه جيداً.

بحثتْ بيدِها اليُسرى عن سنديانةٍ فتيّةٍ فصادفتْ غُصناً تعلّقتْ به. وقذفتِ الدّلوَ إلى الأمام. وبينما كانتْ تنحني هكذا لم تُلقِ بالاً لجَيْبها الذي وقعتْ منه قطعةُ النّقودِ في الماء. لم ترها الطّفلةُ ولم تسمعها تسقط، فسحبتِ الدّلوَ الملآن ووضعتْه على العُشب.

بعد ذلكَ شعرتْ بتعبٍ شديد، وتمنّتْ أنْ تُعاودَ السّيرَ فوراً لكنّ الجهدَ الذي بذلتْهُ لملءِ الدّلو كان كبيراً لدرجةٍ إستحال عليها معها أنْ تخطو خُطوةً واحدة. إضطرّتْ للجلوسِ فارتمتْ على العُشب حيثُ بقيتْ ممدّدة.

كانت السّماءُ فوقَ رأسها مُغطّاةً بغيومٍ كثيرةٍ سوداء كالدّخان. ازدادَ الظّلامُ حلكةً وهبّتْ ريحُ باردةٌ على السّهلِ حرّكتْ أغصانَ الشّجر وحملتِ الأعشابَ فمرّتْ مُسرعةً كما لو كانتْ هاربةً من شيءٍ آت.

إنّ الكلامَ ليعجزُ عن وصفِ ما شعرتْ به الطّفلة. . . . .
بدأتْ تَعُدُّ بصوتٍ عالٍ: «واحد، إثنان، ثلاث، أربع حتى عشر ثمّ تُعيد الكرّة. ساعَدها ذلك في البدايةِ لكنْ لوقتٍ قصير. كانتْ مياهُ النّبع قد بلّلتْ يديْها فبردت، وعاودها

الخوفُ فلم تَعُدْ تُفكّرُ إلاّ بأمرٍ واحدٍ هو الهرب والجريُ عَبْرَ الغابةِ والحقـول حتى البيوتِ والنّوافـذِ والنّـور. لكنّ وجـهَ السيدة تينارديه ظهرَ لها. فتناولتِ الدّلوَ بكلتا يديْها ووجدتْ مشقّةً في رفعِه.

سارتْ بضعَ خطواتٍ لكنّ الدّلـو كان ثقيلاً فاضطرّتْ لإنزاله أرضاً. تنفّستْ لحظةً ثم استعادتْـهُ واستأنفتِ السّيرَ لوقتٍ أطولَ قليلاً هذه المرّة. لكنّها اضطرتْ أيضاً للتوقّف. وبعد نصفِ دقيقةٍ انطلقتْ من جديد. كانتْ تسيرُ مُنحنيةً إلى الامام، خافضةَ الرّأس كامرأةٍ عجوز. وكان ثقلُ الدّلوِ يشدّ ذراعيْها النحيلينْ؛ ويداها الصّغيرتان المبلّلتان تَشعران بالبردِ لاحتكاكهما بالحديد. كان عليها أنْ تتوقّفَ من وقتٍ لآخر، وفي كلّ مرّةٍ تتوقّف فيها يسيلُ الماءُ الباردُ على ساقيْها.

حدثَ كُلُّ ذلك ليلاً في أعماقِ الغابةِ وفي فصلِ الشّتاءِ، بعيداً عن كلّ شيء. إنها طفلةٌ في الثّامنةِ من العمر، واللّهُ وحدُه كان يرى في هذه اللّحظةِ ذلك الأمرَ المُحزن، بالإضافةِ إلى أمّها بدون شك فهناكَ أمورٌ تَفتحُ عُيونَ الموتى في قبورِهم.

أطلقتْ كوزيت أنيناً يُشبه الشّكوى لكنّها لم تجرؤْ على

البكاءِ لشدّةِ خوفها من السيدة تينارديه ولـو عن بُعـد، ولا اعتقادِها أنّ تلكَ المرأةَ تتعقبّها دائماً.

سارتْ ببطءٍ شديد، وأدركتْ أنّه يلزمُها أكثرَ من ساعة كي تعـودَ بهـذه الصّـورة إلى مونغارمـاي وأنّ السيدة تينـارديه ستضربُها حتماً. إمتزجتْ فكرةُ الضّرباتِ القادمة بخوفها من الوحدة ليلاً في الغابة، وكانتْ تعبةً جداً ولم تخرجْ بعدُ من الغابة. وعندما وصلتْ إلى قُربِ شجرةٍ ضخمةٍ مجُوّفةٍ تعرفُها جيداً، توقّفتْ مجُدداً ثمّ عاودتِ السّيرَ بشجاعـة. وفي هذه الأثنـاء لم يستطـعِ الكائـنُ الصّغيرُ المسكينُ أنْ يمتنعَ عن الصيّاح: «يا آلهي، يا آلهي!».

في هذه اللّحظـةِ، شعرتْ فجأةً أنّ الدّلـو لم يعـدْ ذا وزْن. . . . . فلقد رفعتْهُ يدٌ بدتْ لها شديدةُ الضّخامـة. رفعتْ رأسهـا فرأتْ شبَحاً طويلاً أسود مُستقيماً يسيرُ إلى جانبها. إنّه رجلٌ أتى من خلفها دون أنْ تسمعَه، فأخذَ الدّلو الذي تحملُه دون أنْ ينبسَ ببنتِ شَفَة.

لم تخفِ الطّفلة.

من أين اتى الرجل؟

بعدَ ظهرِ هذا اليوم بالذّات وهو يومُ الميلاد لعام ١٨٢٣، كان رجلٌ يتنزّهُ في جادةِ المستشفى في باريس بعد أنِ استأجرَ غُرفةً في الحي. ومع ذلك فقد كان يبدو عليه أنّه يبحثُ عن شيءٍ ما فيتوقّفُ أمامَ أشدِّ البيوتِ بُؤساً. كان يظهرُ عليه أنّه غريبٌ عنِ الحيّ وربّما عن باريس.

كان هذا الرّجلُ يرتدي ثياباً فقيرةً، لكنّها نظيفة، ويعتمرُ قُبّعةً مُستديرةً وقديمةً غالباً ما نُظّفتْ بالفرشاة. أمّا سُترتُه البالية فكانتْ من الجوخِ الأصفرِ الخشن، وسرواله الرّماديٌّ أسودُ عند ركبتيْه وجورباه من الصّوفِ الأسود وحذاءاه ضخمان. والمرءُ عندما يَرى شعرَه الأبيضَ وجبهتَه وشفتيْهِ ووجهَهُ المُتعب، يُقدّرُ عمره بأكثرَ من ستّين سنة. لكنّه عندما يرى خُطوته فإنّه لا يُعطيه أكثرَ من خمسين. كان يُمسكُ بيسراهُ رُزمةً

صغيرةً وبيُمناهُ عصاً، ويمتنعُ عنِ التّحدّثُ إلى المارة ويختبىءُ عندما يرى رجالَ الشّرطة. لاحظَه أحدهُم وحاولَ اللّحاقَ لكنَّ الرّجلَ اختفى في شوارعَ ضيّقة.

إلتفتَ مراراً عديدةً لِيرَى ما إذا كان هناك من يتعقّبه وعند السّاعةِ الرّابعةِ والرّبع، أيْ عندَ هبوطِ اللّيلِ، مرّ أمامَ مسرحٍ تُمثّلُ على خشبتِه رواية «المحكومين». فنظرَ لحظةً ثُمّ توقّف بعد بضعةِ شوارعَ أمامَ عربةٍ ستنْطلقُ إلى «لانيي» في الرابعة والنصف. كانتِ الجيادُ جاهزةً والمسافرون يصعدون.

سأل الرّجل:

ـ ألديكم محل؟

فأجاب السّائق:

ـ محلٌّ واحدٌ بجانبي.

ـ إنّني آخذه.

ـ إصعد.

ومع ذلك، وقبلَ أنْ يرحلَ ألقى السّائقُ نظرةً على ملابسِ المسافر الفقيرة ثم طلبَ منه أنْ يدفعَ مُقدّماً.

إنطلقتِ العربةُ وتحدّثَ السّائقُ لكنّ المُسافرَ أجابَ باقتضاب.

كان الطّقسُ بارداً. مرّ مسافرون «بجورناي» و «نويي سيرمارن».

وحوالي السّاعةِ السّادسةِ وصلوا إلى «شال» فتوقّفَ السّائقُ ليُريحَ جيادَه. قال الرجل:

ــ سأنزلُ هنا.

ثمّ أخذَ رُزمتَه وعصاه وقفزَ مِنَ العربةِ واختفى بعدَ لحظة، إلتفتَ السّائقُ إلى مُسافري الدّاخل قائلاً:

ــ هاكُمُ رجلاً ليسَ من هنا لأنّني لا أعرفُه. يبدو عليه أنّه ليستْ لديْه نقودٌ لكنّه يدفعُ الأجرة حتى «لانيي» ولا يذهبُ أبعدَ من «شال». لقد هبطَ اللّيلُ وكلُّ البيوتِ مُغلقة. لم يدخل النّزلَ فإلى أين يمكن أنْ يذهب؟

كانَ اللّيلُ من إحدى ليالي كانون الأول الحالكةِ الظّلام. ولم يكنْ يعرفُ إلى أينَ هو ذاهبٌ فاجتازَ في الظّلام شارع «شال» الرّئيسي ثم انعطفَ إلى اليسار قبلَ أنْ يصل إلى الكنيسةِ سالكاً الطّريقَ المؤدّيةَ إلى مونغارماي.

سارَ في هذا الطّريق بسرعةٍ وقبلَ قرية مونغارماي بقليل، إنعطفَ إلى اليمين عبرَ الحقول واتّجه بخُطى عريضةٍ نحو الغابة. وعندما بلغَها سارَ ببطءٍ وبدأ يتأملُ كلّ الشّجر وهو يتقدّم خُطوةً خُطوةً كما لو كانَ يتبعُ طريقاً يعرفُها هو وحدَه. وفي لحظةٍ ما بدا أنّه قد تاه فتوقّفَ. وأخيراً وصلَ إلى حجارةٍ بيضاءَ ضخمة، فاتّجه نحوها بسرعة ونظرَ إليها بانتباه. كانتْ هناك شجرةٌ ضخمةٌ على بُعد بضع خُطواتٍ من كومةِ الحجارة، فمشى إليها ثمّ التفت.

كانت هناك شجرةٌ قديمةٌ مجُوفةٌ قُبالته، فتقدّم منها ثم نظرَ إلى الأرض فوجدَ أنها لم تتحرّك وعندئذٍ إستأنفَ سيرَه عَبْرَ الغابة.

هذا الرّجل هو الذي صادفتْه كوزيت.

لقد رأى ذلك الخيّالَ الصّغيرَ يتوقّفُ ويضع شيئاً ما ثم يستعيدُه ويعودُ للسّير مُطلقاً الأنّات، فعرفَ أنّه لابنةٍ صغيرةٍ تحملُ دلوَ ماءٍ أكبرَ منها، وذهبَ إليها وساعدَها دون أنْ يقولَ شيئاً

* *

كوزيت في الظلام مع رجلٍ مجهول

كما قلنا لم تخفْ كوزيت.

وجّه إليها الرجل الكلام قائلاً بصوت منخفض.

ـ إنّ ما تحملينه لثقيل جداً بالنسبة لكِ يا ابنتي!

رفعتْ كوزيت رأسها وأجابتْ:

ـ أجل يا سيدي.

ـ دعيني أحمله لوحدي.

تركته كوزيت يفعل فقال من بين اسنانه:

ـ حقاً انه لثقيل جداً!

ثم أضاف:

ـ كم عمرك أيتها الصغيرة؟

ـ ثمانية أعوام يا سيدي.

ـ هل اتيتِ هكذا من بعيد؟

ـ من النبع.

ـ وهل تذهبين بعيداً؟

ـ انها مسيرةُ ربع ساعة من هنا.

صمتَ الرجل لحظة ثم قال:

ـ اليست لك أمٌّ اذن؟

ـ لا أدري، إنّني أعتقدُ أنّه لم تكن لي أم أبداً.

توقّف الرجل ووضعَ الدّلوَ أرضاً ثم انحنى واضعاً يديه على كتفي الطفلة وهو يبذلُ جهداً كي يتبيّن وجهها في الظلام وقال:

ـ ما اسمك؟

ـ كوزيت.

بدا الرجل كمن تلقّى صفعةً فنظرَ إليها ثانيةً ثم نزعَ يديه من على كتفيها وأخذَ الدلو واستأنفَ المسير. وبعد لحظة

سألها:

ـ أينَ تسكنينَ ايتها الصغيرة؟

ـ في مونغارماي.

ـ وهل نحنُ ذاهبانِ إلى هناك؟

ـ أجل يا سيدي.

عادَ إلى الصمت لحظةً ثم استأنفَ أسئلتَه:

ـ ومن ذا الذي أرسلكَ في هذه السّاعةِ لاحضارِ الماء من

ابة؟

ـ انها السيدة تيناردييه.

تابعَ الرجلُ بصوتٍ اجتهد أن يظهره خالياً من الاهتمام:

ـ وما الذي تصنعه السيدة تيناردييه؟

ـ انها معلمتي وهي تُديرُ النزل.

ـ النزل؟ حسناً فسأذهبُ لأنامَ فيه هذه الليلة. قوديني إليه.

ـ اننا ذاهبان إليه.

أسرع الرجلُ في مشيته فتبعته كوزيت دون جهد إذ لم تعد تشعر بتعبها. ومن وقتٍ لآخرِ كانت ترفعُ عينيْها إلى هذا الرجل بشيءٍ من الإطمئنان. ورغمَ أنّه لم يسبقْ أنْ علّمها أحدٌ الإتجاه إلى اللّه والصلاة. فإنهّا شعرتْ بداخِلها بما يُشبه الصّلاة.

مرّتْ بضعُ دقائقَ عادَ بعدَها الرّجلُ إلى الحديث:

ـ أليسَ لدى السيدة تيناردييه خادمة؟

ـ كلاّ يا سيدي.

ـ وهل أنتِ وحيدة؟

ـ أجل يا سيدي.

سادَ صمتٌ آخر قطعتْهُ كوزيت قائلة:

ـ أعني أنّ هناك بنتيْنِ صغيرتين.

ـ أيّةُ بنتيْنِ صغيرتيْن؟

ـ بونين وزيلما.

ـ ومن هُما بونين وزيلما؟

ـ إنّهما ابنتا السيدة تيناردييه.

ـ وماذا تفعلان؟

ـ أوه! إنّ لديهما دُمى جميلة وأشياء مُذهّبة، وحاجات كثيرة. إنّهما تلعبان وتتسلّيان.

ـ طولَ النهار؟

ـ أجل يا سيدي

ثمّ تابعتْ بعد صمت.

ـ إنّني أتسلّى أيضاً أحياناً عندما أنهي عملي وعندما يُسمحُ لي بذلك.

ـ وكيفَ تتسلّين؟

ـ كما أستطيعُ. إنهّم يدعونَني وشأني. لكنْ ليسَ لديّ كثيرٌ من اللُّعب. وبونين وزيلما لا تُريدانِ أنْ ألعب بِلُعَبِهما.

وصلا إلى القريةِ فقادتْ كوزيت الغريبَ في الشّوارع. مرّ أمامَ المخبزِ لكنّ كوزيت لم تُفكّر بالرّغيف الذي كان عليها إحضارُه، وتوقّفَ الرّجلُ عن طرْحِ الأسئلة مُحتفظاً بصمتٍ

حزين. عندما تجاوز الكنيسة ورأى كُلّ تلكَ الدّكاكين في الهواء الطّلق سأل:

ـ ماذا يوجدُ هنا إذن؟

ـ إنّه الميلادُ يا سيدي.

وصلا إلى قُربِ النّزل فلامستْ كوزيت ذراعهَ قائلة:

ـ ـ سيّدي؟

ـ ماذا يا ابنتي؟

ـ ها نحنُ قُربَ النّزل.

ـ حسناً.

ـ أتسمح لي باستعادةِ الدّلو؟

ـ لماذا؟

ـ إذا رأتِ السيدة أنّ شخصاً قد حملَه عنّي فستضربني. ردّ الرّجلُ الدّلوَ وبعد لحظةٍ كانا أمامَ بابِ النّزل.

* * *

فقيرٌ ربّما كان ثريًا

ألقتْ كوزيت نظرةً باتجاهِ الدّمية الكبيرة ثم قرعتِ البابَ ففتحَ وظهرتِ السيدة تيناردييه وفي يدِها مصباحٌ وقالت:

ــ آه! هذا أنت؟ لقد أمضيتِ وقتاً طويلاً وتسلّيتِ مرّة أُخرى!

أجابته كوزيت وهي ترتجف:

ــ هاك يا سيدتي سيداً أتى للمبيت.

إستبدلتِ السيدة تيناردييه هيئَتها الشرّيرة بابتسامةٍ وبحثتْ بعينيْها عن القادمِ الجديد وسألتْ.

ــ أهُوَ السيد؟

أجابَ الرّجلُ محُيّياً:

ــ نعم يا سيدتي.

إنّ المسافرينَ الأغنياء لا يكونون عادةً بمثل هذا التّهذيب.

قدّرتِ السيدة تيناردييه بنظرةٍ إلى الثوبِ إمكاناتِ الرّجلِ ثم قالتْ بلهجةٍ جافّة.

ــ أدخل.

دخلَ الرّجلُ فألقتْ عليه نظرةً ثانيةً ورأتِ السّترة البالية والقبعّة ثم أشارتْ إلى زوجها الذي كان يشربُ كالعادة، فأجابها بحركةٍ من أصابعِه تعني: لا نقود.

عندئذٍ صاحتِ السيدة تيناردييه:

ــ ألمعذرة، لم تبقَ لديّ غرفٌ شاغرة.

ــ ضعيني أينما شئت، في مخزنِ الحبوب أو مع الجياد إذا أردت فسأدفعُ كما لو كنتُ أشغلُ غرفة.

ــ فرنكان.

ــ فرنكان إذا أردت.

ــ هذا حسن.

قال أحدُ الزّبائن للمرأةِ بصوتٍ مُنخفض.

ـ فرنكان! لكنّ الأُجرة هي فرنكٌ واحدٌ فقط.

ـ إنهّا فرنكان بالنّسبة له فأنا لا أستقبلُ الفقراءَ بأقلّ من ذلك.

أضافَ الزّوجُ بصوتٍ عذب:

ـ هذا صحيح، فاستقبالُ مثلِ هؤلاء النّاس يضرّ بسُمعةِ النّزل.

وفي هذه الأثناء تركَ الرّجل رزمتَه وعصاه على أحدِ المقاعد وجلسَ إلى طاولةٍ وضعتْ عليها كوزيت بسرعةٍ زجاجةَ خمر وكوباً. أمّا البائعُ الذي كان قد طلبَ دلوَ الماء فقد ذهبَ يحملُه بنفسه إلى جواده. عادتْ كوزيت إلى مكانها تحتَ طاولةِ المطبخ وإلى حياتها.

لم يتناولِ الرّجلُ سوى النّذرِ اليسير من قدح الخمر ونظرَ إلى البيت بانتباه. كانتْ كوزيت تفتقرُ إلى الجمال، وربّما أصبحتْ جميلةً لو كانتْ سعيدة. إنهّا نحيلة، في حواليْ الثامنة من العمر لكنّها تبدو وكأنها لم تبلغِ السادسة. عيناها الواسعتان الغائرتان قرّحهما البكاءُ الشّديد، وزاويتا فمِها تُشبهان تلكَ التي للمحكومين أو للمرضى اليائسين. كانتِ

النّارُ تُضيئها فتُبرز عظامَها ونحولَها. ولشعورِها الدّائم بالبرد، فلقدِ اعتادتْ أنْ تشدّ ركبتيْها إلى بعضهما، إذْ أنهّا لا تلبسُ سوى القماشِ المثقوب دون أيّة قطعةٍ صوفيّة. ومن خلاله يستطيعُ المرءُ أنْ يَرى جلدَها هنا وهناك وأحياناً بُقعاً زرقاء وسوداء في الأمكنة التي ضربتها المرأةُ تيناردييه. كان كلُّ شيء في هذه الطّفلة من صوتِها إلى نظرتِها وصمتِها يُظهر شعوراً وحيداً هو الخوف.

كان الخوف فوقَها، وكانتْ إذا صحّ التّعبير مُغطّاةً به، فكانَ يُشدّ مرفقيْها إلى جسمِها وكعبيْها تحت «تنانيرها» ويجعلُها تُشغلُ أصغرَ حيّزٍ مُمكن فلا يَدعُها تتنفّس إلاّ الضّروري. وهكذا أصبحَ كما يُمكن أنْ ندعوه عادتَها الجسمانية. وكان هذا الخوفُ شديداً الدرجةِ أنهّا عندما وصلتْ مُبتلّةً لم تجرُؤ أنْ تذهبَ لِتُجفّفَ ملابسَها أمامَ النّار بل عادتْ إلى عملها بصمت.

سبقَ أنْ قُلنا أنهّا لم تعرفْ ابداً ما هي الصّلاة، ولم تطأْ قدماها أرضَ كنيسة، فقد كانتِ المرأةُ تيناردييه تُردّد: «هل لديّ أنا الوقت للذّهاب إليها؟»

لم تتحوّل أنظارُ الرّجلِ ذي السترة الصّفراء عن كوزيت.

وفجأةً صاحتِ السيدة تيناردييه: «وذلكَ الرّغيف؟» خرجتْ «كوزيت» مُسرعةً من تحتِ الطاولة ككلّ مرّةٍ ترفع فيها الأُولى صوتَها. لقد نسيتْ ذلك الرّغيف تماماً، لكنّها ككلّ الأطفالِ الخائفينَ كذبتْ.

ـ لقد كان المخبز مُغلقاً يا سيدتي.

ـ كان عليك أنْ تقرعي الباب.

ـ لقد قرعتُه يا سيدتي.

ـ حسناً.

ـ لم يفتحِ الخبّاز.

ـ سأعرفُ غداً إذا كان هذا صحيحاً، وسأضربُكِ إذا كذبت. وبانتظار ذلك أعيدي إليّ قطعةَ الخمسة عشر غرشاً.

وضعتْ كوزيت يدَها في جيبها فلم تجدْ فيه تلكَ القطعة.

قالتِ المرأةُ تيناردييه:

ـ ماذا؟ أَلَمْ تسمعي؟

قلبتْ كوزيت جَيبها فلم يكُنْ فيه شيء. ما الذي حلّ بالنّقود؟ لم تعرفِ الطّفلةُ المسكينةُ ماذا تقول.

صاحتْ تيناردييه:

ـ هل أضعتِ قطعةَ الخمسة عشر غرشاً؟ أمْ أنّك تُريدين سرقتِها منّي؟

وفي نفسِ الوقت، مدّتْ ذراعَها نحو عصا.

أعادتْ هذه الحركةُ لكوزيت القوّةَ على الصياح:

ـ المعذرة يا سيدتي! سيدتي! لنْ أفعلها ثانية!

تناولتْ تيناردييه العصا. وفي هذه الأثناء أخرجَ الرّجلُ ذو السترةِ الصّفراء شيئاً من جيبه دون أنْ يلحظه أحد، فقد كان المسافرون الآخرون يُعاقرون الخمرة أو يلعبونَ الورق.

تراجعتْ كوزيت إلى زاويةٍ من القاعة، مُحاولةً الإختباءَ ورفعتْ تيناردييه ذراعَها.

تدخّل الرّجلُ قائلاً:

معذرةً يا سيدتي لكنّي رأيتُ منذ لحظةٍ شيئاً يقعُ من جيبِ هذه الصّغيرة ويتدحرج. ربّما كان هذا.

وفي نفسِ الوقت إنحنى وظهَر وكأنّه يبحثُ لحظةً فوقَ الأرض ثم قال وهو ينهض:

ـ هذا هو.

وقدّم قطعةَ نقود إلى السيدةِ تيناردييه فقالتْ:

ـ نعم، إنّها هي!

لم تكنْ تلك هي القطعة، بل كانتْ قطعة عشرين غرشاً.

ابتسمتْ تيناردييه ووضعتِ القطعةَ في جيبها ثم ألقتْ نظرةً قاسيةً على الطّفلة وقالتْ:

ـ ينبغي ألاّ يحدث هذا لكِ ثانية.

عادتْ كوزيت إلى تحت الطّاولةِ وبدأتْ عيناها الواسعتانِ تأخذان نوراً لم تعهدهُ من قبل عندما تنظرُ إلى المسافرِ المجهول.

سألتْ تيناردييه المسافرَ أخيراً: «هل تُريدُ العشاء؟» فلمْ يُجبْ وبدا عليه أنّه يحلمُ فقالتْ من بين أسنانها: «مَنْ هو ذلك الرجل؟ يبدو أنّه فقيرٌ جداً، وليس لديه قرشٌ يتعشّى به، فهل سيدفعُ لي أُجرة إيوائه على الأقل؟ من حسنِ الحظّ أنّه لم يسرقْ قطعةَ النّقود التي كانتْ على الأرض.»

في هذه الأثناء فُتح بابٌ ودخلتْ منه ايبونين وأزيلما. إنّهما حقاً إبنتان جميلتان، الأُولى بشعرِها الكستنائي والأُخرى بشعرِها الأسود وكلتاهُما مَرحتان، نظيفتان، بدينتان ونَضرتان. ملابسُهما دافئة. كانَ الفرحُ يَبرزُ للجميع من ثيابِهما ومرحِهما وضجيجِهما وعندما دخلتا قالتْ لها تيناردييه

بحنان: «آه! ها أنتما إذن ثم أجلستْهُما على ركبتيْها الواحدة تلوَ الأخرى وصفّفتْ لهما شعرَهما.

بعد ذلك ذهبتِ الصّغيرتانِ للجلوسِ قُربَ النّار. كانتْ لديهما دميةٌ يُديرانها وهما تُطلقان الصيّحات الفرحة. ومن وقتٍ لآخر كانتْ كوزيت ترفعُ عينيْها عمّا تحوكه وتنظرُ إليهما بحزنٍ وهما تلعبان. أمّا أيبونين وأزيلما فلم تكونا تتطلّعان إلى كوزيت التي هي بالنّسبة لهما كالكلب. كانتْ دميةُ الأختيْن تيناردييه قديمةً جداً ومُحطمةً لكنّها كانتْ تبدو جميلةً لكوزيت التي لم تمتلكْ في حياتِها دُميةً حقيقيّة حسبَ تعبير الأولاد.

فجأةً لاحظتْ تيناردييه التي استمرّتْ تغدو وتروح في القاعةِ أنّ كوزيت بدلاً من أنْ تعملَ، قد شُغِلتْ بالصّغيرتيْن اللّتين تلعبان، فصاحتْ:

ـ آه! أبمثلِ هذه الطّريقة تعملين! سوف أجعلُكِ تَعملين بِضرباتِ العصى!»

إلتفتَ الغريبُ دون أنْ يتركَ كرسيَّه نحو السيدة تيناردييه وقال لها وهو يبتسمُ بلطف: «هذا لا يهمُّ يا سيدتي. دعيها تلعب.»

لو صدرَ هذا الطّلبُ عن أيّ مسافرٍ آخر أكلَ لحماً وشرب زجاجتيْ نبيذ مع عشائه، دون أنْ يبدو عليه أنّه فقير، لَكَانَ بمثابةِ الأمر، لكنْ أن يسمحَ رجلٌ يعتمرُ تلك القبّعةَ ويرتدي تلكَ السّترةَ لنفسِهِ بإبداء مثلِ هذه المُلاحظة، فهذا ما يزيدُ عن الحد. أجابتْ تيناردييه:

ـ ينبغي أنْ تعملَ إذا أرادتْ أنْ تأكل.

أجابَ الغريبُ بذلك الصّوت العذب، المستغرب تحت تلك الملابس البالية وفوقَ تلك الأكتاف العريضة.

ـ وما الذي تفعلُه إذن؟

ـ جواربٌ، إذا سمحتَ؛ جواربُ لابنتيْ اللّتين ليس لديْهما جوارب.

نظر الرّجل إلى قدميْ كوزيت المحمّرتين وتابعَ:

ـ ومتَى ستنتهي هذه الجوارب؟

ـ بعد ثلاثة أو أربعة أيام على الأقل.

ـ وكم يُمكن أنْ يُساوي هذا الزّوج من الجوارب عندما يُصنع؟

نظرتْ إليه تيناردييه نظرةً قاسيةً وأجابتْ:

ـ ثلاثة قروش على الأقل.

ـ وهل تُعطينها بخمسةِ فرنكات؟

صاحَ أحدُ الزّبائن وهو يُرسلُ ضحكةً عريضة!

ـ بحقّ السّماء! خمسة فرنكات! أعتقدُ أنها تفعل.

إعتقد السيد تيناردييه أنَّ على زوجته أنْ تقول:

«أجـل يا سيدي اذا كان ذلك يُسـلّيك، سنُعـطيك هذيْن الجوربينْ بخمسة فرنكات، فنحنُ لا نرفضُ لزبائننا طلباً.

قالتِ السيدة تيناردييه:

ـ يجبُ أنْ تدفع فوراً.

أجابَ الرّجل:

ـ إنّني اشتري هذيْن الجوربيْن.

ثم أضافَ وهو يُخرجُ من جيبه قطعةً بخمسةِ فرنكات ويضعُها على الطّاولة:

ـ وإنّني أدفع.

ثمّ التفتَ إلى كوزيت قائلاً:

ـ والآن وقد أصبحَ عملُكِ لي، فالعبي يا صغيرتي.

في هذه الأثناء كانت كوزيت ترتجف، ومع ذلك فقد تجرّأتْ على السؤال:

ـ هذا صحيحٌ يا سيدتي؟ هل أستطيع أنْ العب؟

قالتْ تيناردّيه بلهجةٍ شريرّة.

ـ إلعبي.

ـ شكراً يا سيدتي.

في الوقتِ الذي كان فمُها يشكرُ تيناردييه، كانتْ كلّ نفسِها الصّغيرة تشكُر المسافر.

عادَ تيناردييه الى الشربِ، فأسرَّتْ زوجتُه في أُذنه:

ـ مَنْ يمكن أنْ يكون هذا الرّجل الشّاحب؟

أجابَ الزوج:

ـ لقد رأيتُ أصحابَ ملايينِ يرتدونَ سُتراتٍ كهذه.

تركتْ كوزيت الحياكة لكنّها لم تُغادر مكانهَا بل كانتْ تُقلّل من حركتِها قدرَ الإمكان بعد أنْ تناولتْ خِرَقاً قديمةً من علبةٍ كانت وراءَها.

لم تُلقِ ايبونين وأزيلما بالاً لِما يجري، فقد القتا بدميتِهما أرضاً والتقطتَا الهرَّ الصّغير، ألبستْهُ ايبونين رغمَ مُوائه خِرَقاً حمراءَ وزرقاء. وأثناءَ قيامِها بهذا العملِ الصّعبِ قالتْ

لأُختها: «هذه اللّعبةُ، كما ترين يا أُختاه، مُسليّةٌ أكثرَ من الأُخرى. إنهّا تتحرّكُ وتَصيحُ وهي دافئةٌ فَلْنلعبْ بها يا أُختاه.»

أصغتْ أزيلما إلى أيبونين بعينينِ مُتّسعتيْن.

في هذه الأثناء أفرطَ الشّاربون في الشّرابِ فازدادَ مرحهم وضَجيجهم وأخذوا يُغنّون. ذهبتِ الأمّ تيناردييه لِتأخذَ نصيبَها من الضّحك. أمّا كوزيت فكانتْ تتأمّلُ النّارَ من تحتِ الطّاولة وهي تُمسكُ رزمتَها من الخرق بين ذراعيْها وتُغنّي غناءً حزيناً بصوتٍ مُنخفض.

عادتْ تيناردييه فسألتِ المسافرَ مرّةً ثانيةً إذا كان يُريدُ أنْ يتعشّى فقال: «إنّني أُريدُ شيئاً من الخبز والجبن» فقالتْ في نفسها: «حقاً إنّه لَرَجُلٌ فقير!»

كانَ الشّاربون لا يزالونَ يُغنون وكذلك الطّفلةُ تحت الطّاولة فجأةً كفّتْ كوزيتْ عن الغناء فلقد رأتْ دُميةَ الأُختيْن تيناردييه مُلقاةً على الأرض على بُعدِ خُطواتٍ من طاولةِ المطبخ.

عندئذٍ أجالتْ بصرَها ببطءٍ في أرجاء القاعة. كانتِ الزّوجة تيناردييه تتحدّثُ إلى زوجها بصوتٍ مُنخفض وتعدُّ النّقود أمّا

ايبونين وأزيلما فلقد كانتا تُداعبان الهر ولم يكنْ أحدٌ ينظرُ إليها. خرجتْ من تحتَ الطّاولةِ وأخذتِ الدّمية. وما هِيَ إلاّ لحظةٌ حتى كانتْ في مكانِها جالسةً بشكلٍ يُغطّى به الظّلُّ الدميّةَ التي أمسكتْ بها بينْ ذراعيْها. كان وجهُها سعيداً، فَعادَةُ اللّعبِ بدُميةٍ كانتْ نادرةً بالنسّبةِ لها.

كانَ المسافرُ الذي يتناولُ عشاءَهُ البسيطَ هو الشّخصُ الوحيدُ الذي رآها.

برزَ أحدُ قدميْ الدّمية فأضاءَتهُ نارُ الموقدة ولمحتْ أزيلما تلكَ القدمَ الورديّةَ لايبونين: «أُنظري يا أُختي!»

إنتصبتِ البنتانِ الصّغيرتان. ماذا؟ أتجرؤُ كوزيت أنْ تأخذ دميتهما؟ إتّجهتْ أيبونين نحو أمِّها والهرّ تحتَ ذراعِها وبدأت تشدّ ثوبها. قالتِ الأمّ: «دعيني، فما الذي تُريدينه مني؟».
«أُنظري يا أمّاه.» وأشارتْ بإصبعها إلى كوزيت.

أمّا كوزيت فلم ترَ ولم تسمعَ شيئاً. إذ كانتْ أسعدَ ممّا ينبغي.

ظهرَ الحقدُ على وجهِ الأم تيناردييه. أتمسُّ دمْيةُ هاتين الآنستين؟ إنّ هذا كثير. صاحتْ بنبرةٍ قاسية: «كوزيت!».
وضعتْ كوزيت الدمية أرضاً بشيءٍ من الإحترام الذي يمازجُه

اليأس. ثم تراجعتْ دون أنْ ترفعَ عينيْها. ثم حدثَ أخيراً ما لم يستطعْ أنْ ينتزعه منها ركضُها في الغابةِ ولا وزنُ الدلْو، ولا فُقدانُ النّقود ولا رُؤيةُ العصا ولا كلماتُ المرأة تيناردييه، فبكتْ.

في هذه الأثناءُ نهضَ المسافرُ وقال للزّوجة تيناردييه: «ما هذا» فقالتْ تيناردييه مُشيرةً بإصبعها إلى الدّميةِ عند قدمي كوزيت:

ـ ألاَ ترى؟

ـ حسناً، وماذا؟

ـ لقد سمحتْ هذه الكلبةُ لنفسها أنْ تلمسَ دُميةَ ابنتيَ.

ـ كلُّ هذه الضّجةِ منْ أجلِ ذلك! ولِمَ لا تلعبُ بهذه الدّمية؟

ـ إنّها تلمسُها بيديْها القذرتيْن!

هُنا ازداد بكاءُ كوزيت فصرختِ المرأة؟

ـ هل ستسكتين؟

اتّجه الرّجلُ رأساً إلى الباب الخارجيّ ففتحهُ وخرج.
سدّدتْ تيناردييه عندئذٍ إلى الطّفلة تحتَ الطّاولة ركلةً انتزعت منها صيحاتِ الألم.

فُتحَ البابَ وظهرَ الرّجلُ ثانيةً وهو يحملُ الدّميةَ الكبيرة، تلكَ التي كان كلُّ أطفالِ القريةِ ينظرونَ إليها مُنذ الصّباح. فوضعها أمامَ كوزيت قائلاً: «خُذي، إنّها لك.»

رفعتْ كوزيت عينيْها. لقد رأتْ قُدومَ الرّجل بهذه الدّمية كما ترى قُدومَ الشّمسِ وسمعتْ تلكَ الكلمات التي لم تستطعْ تصديقَها بادىء الأمر: «إنّها لك.». نظرتْ إليه ثم إلى الدّميةِ وتراجعتْ ببطء وذهبتْ تختبىءُ في العمق، في زاويةِ الجدار. لم تعد تبكي أو تصرخ بل كانتْ تبدو وكأنّها لم تعد تجرؤُ على التنفس.

كانتْ تيناردييه وإيبونين وأزيلما كأصنامٍ قُدَّتْ من حجارة، حتى الشاربون أنفسهم توقّفوا عن الغناءِ فرانَ صمتٌ عميقٌ على النّزل كلّه. بدأتْ تيناردييه تتساءل: «مَنْ هو ذاك العجوز؟ أهو فقير أمْ ثري؟ ربّما كان الاثنين، أيْ سارقاً!»

أمّا الزّوج تيناردييه فقد كان ينقلُ بصرَه بين الدّمية والمسافرُ وكان يدرسُه كما يَدرس كيساً من النّقود. ثمّ اقتربَ من زوجته وقال لها بصوتٍ منخفض:

ــ هذه الدّمية ثمنُها ثلاثون فرنكاً على الأقل، فافعلي كلَّ ما يُريده الرّجل.

قالت المرأةُ تيناردييه بصوتٍ أرادتْه عذباً:

ــ حسناً يا كوزيت، ألاَ تأخذينَ دميتَك؟

فتجرّأتْ كوزيت على الخروج من جُحرها. وتابعتْ تيناردييه برقّة مُصطنعة:

ــ يا صغيرتي كوزيت، إنّ السيد يُعطيكِ دُميةً فخُذيها، إنّها لك.

كان وجهُ الطّفلة لا يزالُ مُغطى بالدّموع لكنّ عينيْها بدأتا تمتلئان فَرحاً. ومع ذلك فقد خُيّلَ إليها أنّها لو لمستْ تلك الدّمية فسيخرجُ منها الرّعد. وفي النّهاية تقدّمتْ قائلة:

ــ أأستطيعُ يا سيدتي؟

ــ بالتّأكيد، إنّها لك، فالسيد يهبك إياها.

ــ أحقاً يا سيدي؟ هل هذا صحيح؟ إنّها لي، السيدة؟

كان القريبُ يبدو في المرحلةِ التي يُمسكُ فيها المرءُ عن الكلامِ كيْلا يبكي، فأشارَ إلى كوزيت ووضعَ يدَ «السيدة» في يدِها الصّغيرة.

سحبتْ كوزيت يدَها بسرعة كما لو حرقتْها يدُ «السيدة»

فأخذتْ تنظرُ الى الارض. وفجأةً إستدارتْ وتناولتِ الدّمية فضمّتها بقوّة قائلة:

ـ سوف أدعوها كاترين يا سيدتي، فهل أستطيع أنْ أضعها على كرسي؟

ـ أجل.

كانتْ ايبونين وأزيلما تنظران الآن الى كوزيت بحسد.

وضعتْ كوزيت كاترين على كرسي ثم جلستْ أرضاً أمامَها دون أنْ تلفظَ أيّةَ كلمة أو تأتي بأيّة حركة، فقال الغريب:

ـ إلعبي يا كوزيت.

ـ أوه! إنّني ألعب.

في تلك اللّحظةِ، كان ذلك الأجنبيّ المجهول الذي يبدو كمبعوثِ العنايةِ الالهيّة الى كوزيت هو أكثرُ ما تكرههُ المرأةُ تيناردييه في هذا العالم. قالتْ لإبنتيْها أنْ تذهبا لِتَناما ثم طلبتْ من المسافر ما إذا كانتْ تستطيع أيضاً إرسالَ كوزيت التي تعبتْ جداً اليوم. ذهبتْ كوزيت للنوم حاملةً كاترين بين ذراعيْها.

كانتِ المرأةُ تيناردييه تذهبُ من وقتٍ لآخر إلى طرف القاعةِ حيثُ زوجُها وتحدّثه عن المجهول قائلةً: «يا للحيوان العجوز! ما الذي في بطنه؟ ولمَ يأتي لإزعاجنا هنا؟ ولِمَ يُريدُ لهذه الطّفلةِ الوسخةِ أنْ تلعبَ ويُعطيها لُعباً؟ لِمَ يُعطي دُميةً بثلاثين فرنكاً إلى كلبةٍ أبيعها أنا بثلاثينَ غرشاً؟ هل في ذلك منطقٌ سليم؟

ـ لماذا؟ إنّ الأمر في غايةِ البساطة، إذا كان ذلك يُسليه. إنّ ما يُعجبكِ أنتِ هو أنْ تعملَ الصّغيرة، أمّا هو فيُعجبُه أنْ تلعب. وله الحقّ في ذلك. للمسافر أنْ يفعلَ ما يشاء حينما يدفع. فإذا كان هذا العجوزُ يُحبُّ الأطفالَ، فإنّ الأمرَ لا يخصُّكِ. أليسَ لديه مال؟

عادَ الرّجل فوضعَ مرفقيْه على الطّاولةِ مُستأنفاً تخيّلاته.

مضتْ عدّةُ ساعات، فانصرفَ الشّاربون وأقفرتِ القاعة، وانطفأتِ النّار، بينما لا يزالُ الغريبُ في المكانِ ذاته، يُحرّكُ ساقَه من وقتٍ لآخر. هذا كلّ شيء، فلم يقُل كلمةً واحدة منذُ أنْ ذهبتْ كوزيت.

بقيَ الزّوجانِ تيناردييه لوحدِهما في القاعةِ فسألتِ

الزّوجة: «هل سيمضي اللّيل هكذا؟» وعندما دقّتِ السّاعة الثّانية صباحاً، قالتْ لزوجها: «إنّني جدّ تعبة وسأذهبُ لأنامَ فافعل به ما تشاء.»

جلسَ الزّوجُ إلى طاولةٍ في إحدى الزّوايا وشرعَ في القراءة. انقضتْ ساعةٌ كاملة على هذه الحال، فتحرّكَ تيناردييه ثمّ سعلَ وبصقَ دون أنْ يأتيَ الرّجلُ بأيّةِ حركة. وأخيراً تجرأ على القول: «ألن يرتاحَ سيدي؟» فعبارة: «ألن يذهبَ إلى النّوم» بدتْ له عديمةَ التّهذيب. أمّا كلمةُ «يرتاح» فإنّها تُشعر بالإحترام..

إنّ الغرفةَ التي «ينام» فيها تُكلّف عشرينَ غرشاً، أمّا الغرفة التي «يرتاح» فيها فتكلّف عشرينَ فرنكاً.

قال الغريب:

ــ أنتَ على حق، فأينَ إسطبلك؟

أجابَ تيناردييه باسماً.

ــ سوف أقودُ سيدي إليه.

ثمّ تناولَ المصباحَ وأخذَ الرّجلُ رزمتَه وعصاهُ فقاده تناردييه

إلى غرفةٍ في الطّابقِ الأوّل تحوي أثاثاً جميلاً. قال المسافرُ:

ــ ما هذا؟

ــ إنها غرفةُ زواجنا، ونحنُ نسكنُ الآن غرفةً أُخرى، أنا وزوجتي أمّا هذه فلا يُدخل اليها سوى ثلاثِ أو أربعِ مرّات في السّنة.

ــ كنتُ أودُّ النّومَ مع الجياد.

لم يظهرْ على تيناردييه أنّه سمعَ هذه الملاحظة فأضاء مصباحاً وكانتْ نارٌ جيّدة تُدفىءُ الغرفة.

وعندما التفتَ المسافرُ كان صاحبُ النّزلِ قَدِ اختفى، فلقد ذهب دون أنْ يجرُؤَ على قول: «عِمْتَ مساء.»

في غرفةِ الزّوجين، كانتِ المرأة تيناردييه ممدّدةً لكنّها لم تنم. وعندما سمعتْ خطوةَ زوجِها إلتفتتْ وقالتْ له:

ــ أتدري أنّني سأطردُ كوزيت غداً.

فأجابها الزّوج ببرود:

ــ إنّك تتسرّعين في الكلام. لم يتبادلا كلماتٍ أُخرى، وبعدَ دقائقَ أُطفىء قنديلُها.

من جهتِهِ، وضعَ المسافرُ عصاه ورزمته في إحدى الزّوايا وجلسَ على السّرير حيثُ بقيَ يفكّر لبعضِ الوقت. ثم نزعَ حذاءَه وتناولَ القنديلَ وخرجَ من الغرفةِ وأغلقَ البابَ وهو ينظرُ حولَه كمنْ يبحثُ عن شيءٍ ما. بلغَ السلّمَ وهناك سمعَ ضجّةً خفيفةً تُشبه تنفّسَ طفل، فتبعَها ووصلَ إلى تحت السلّم. بين كلّ أنواع الورقِ القديمِ والزّجاجات الفارغة وفي الغبار، كان هناك سريرٌ إذا صحّ إطلاقُ هذا الإسم على كومةٍ من القشّ موضوعةٍ أرضاً. وفي هذا السّرير كانتْ كوزيت تنامُ عميقاً وهي بكاملِ ملابِسها إذ لم تكنْ تخلعُ ثيابَها في الشّتاءِ كيْلا تبرد.

كانتْ تضمّ إلى صدرها الدّميةَ التي أعطاها إيّاها. ومن وقتٍ لآخر كانتِ الطّفلةُ تُطلقُ تنهدةً عميقة، فتبدو وكأنها ستستيقظُ لكنّها تعودُ وتضمّ بين ذراعيْها الدّميةَ ذاتِ العينينِ اللّامعتيْنِ في الظّلام. وإلى جانبِ سريرِها كانتْ إحدى فردتَيْ حذائها الخشبي فقط.

إلى جانبِ سريرِ كوزيت كان بابٌ مفتوحٌ على غرفةٍ دخلها الغريبُ فرأى في آخرها ومن خلالِ بابٍ زجاجيٍّ سريريْن لأيبونين وأزيلما.

كان على وشكِ الخروجِ عندما رأى حذاءَيْنِ صغيريْن قُربَ النّارِ الخامدة فتذكّر عادةَ الأطفالَ الذين يضعونَ ليلةَ الميلاد نِعالَهم قُربَ الموقدة على أملِ أنْ يجدوا فيها هدّية في الغد. وهكذا لم تنسَ إيبونين وأزيلما أنْ تهيّئا حذاءَيْهما.

إنحنى المسافرُ فوجدَ أنّ الأمّ قد وضعتْ في كلٍّ منهما قطعةً نقديّةً جديدةً بعشرةِ غروش.

نهضَ الرّجلُ وهمّ بالذّهابِ فرأى في آخرِ الغرفةِ حذاءً خشبياً بالياً نصفَ مكسور هو حذاءُ كوزيت، فالطّفلُ لا يفقدُ الأملَ أبداً.

بحثَ الغريبُ في جيبه ووضعَ في الحذاءِ قطعةً ذهبيّةً ثم عادَ إلى غرفتِه بخطواتٍ صامتة.

* * *

تيناردييه في العمل

في صباحِ اليوم التّالي، وقبلَ طُلوعِ النّهارِ بساعتيْن على الأقل، جلسَ الزّوجُ تيناردييه إلى طاولةٍ قُربَ مصباحٍ في قاعةِ النّزل المنخفضةِ والرّيشةُ في يدهِ كي يعدّ حسابَ المسافر ذي السّترةِ الصفراء. وانحنتْ زوجتُه قُربَه تتبعُه بعينيْها دون أنْ يتحدّثا. وفي المنزلِ كانتْ تُسمع ضجّة: إنّها كوزيت تكنُس السلّم.

وبعدَ ربع ساعة انتهى عملُ تيناردييه وهاكمُ ما كتبه:
حسابُ السيد في الغرفة رقم ١: عشاء ثلاثة فرنكات، غرفة عشرة، قنديل خمسة ـ نار أربعة، خدمه واحد المجموع: ثلاثة وعشرون فرنكاً.

صاحتِ المرأةُ وهي تنظرُ إلى زوجها كما لو كانَ رجلاً عظيماً: «ثلاثة وعشرون فرنكاً!»

وككلّ كبارِ الجشعين لم يكنْ تيناردييه، فقالت المرأةُ وهي تفكّرُ بالدّميةَ التي أُعطيتْ لكوزيت أمامَ ابنتَيْها: «أنتَ مُحِقّ يا زوجي العزيزَ، فهوَ مدينٌ لك، تُرى هل سيدفع؟» ضحكَ تيناردييه، فما قِيلَ يجب أنْ يحصل. بدأتِ المرأةُ بترتيبِ الطّاولاتِ، أمّا هو فأخذَ يذرعَ القاعةَ طولاً وعرضاً، ثم أضافَ بعد لحظة: «إنّني مَدين بألف وخمس مئة فرنك.» ثم جلسَ مُفكّراً، وقدماهُ أمامَ النّار.

عادتِ المرأةُ فقالتْ: «ألَمْ تنس، إنّني اليوم كوزيت تلك الكلبة!»

أشعلَ تيناردييه غليونَه: «سلّمي ورقةَ الحسابِ للرّجل.»

لم يكدْ يخرجُ من القاعهِ حتى دخلهَا المسافرُ فعادَ تيناردييه خلفهَ وتوقّف أمامَ البابِ في مكانٍ تستطيعُ زوجتُه وحدها أنْ تراه منه.

قالتِ المرأة: «لقد نهضَ السيد باكراً، فهل يتركُنا؟»

وبينما كانتْ تقول ذلك كانتْ تُقلّبُ ورقةَ الحساب في يديْها والضيقُ بادٍ عليها. فمنَ الصّعبِ عليها أنْ تُقدم حساباً كهذا إلى رجلٍ يبدو عليه الفقر.

أمّا المسافرُ فقد كان كما يظهرُ يُفكّر بأمرٍ آخر. ومع ذلك فقد أجاب:

ــ أجلْ يا سيدتي إنّني راحل.

ــ أليس للسيد إذن شغلٌ في مونغارماي؟

ــ كلاّ إنّني مارٌّ من هنا، هذا كلُّ ما في الأمر. بِكَمْ أنا مَدينٌ لكِ يا سيدتي؟

مدّتْ له المرأةُ تيناردييه ورقةَ الحسابِ مطويّةً دون أنْ تُجيب، فتحَ الورقةَ وألقى عليها نظرةً لكنّه كان لا يزالُ يُفكّرُ في أمرٍ آخر. ثمّ استطردَ قائلاً:

ــ هل تقومون يا سيدتي بأعمال جيّدة في مونغارماي هذه؟

أجابتْ تيناردييه وقد أدهشها عدمُ غضبه:

ــ كلا يا سيدي، إنّ الظّروفَ قاسية! ثم إنّنا لا نستقبلُ سوى القليلِ من الأغنياء. ولو لم يكنْ لدينا من هنا وهناك مسافرون كسيدي! لدينا مصاريفُ كثيرة. فهذه الصّغيرة تُكلّف غالياً.

ــ أيّة صغيرة؟

ــ ألصّغيرة التي تعرفُها، كوزيت.

ــ وإذا أُخِذَتْ منكم؟

ــ مَنْ؟ كوزيت؟

ــ أجل.

أضاءتْ إبتسامةٌ بشعةٌ وجهَ صاحبةِ النّزلِ الأحمر فقالت:

ــ آه يا سيدي، يا سيدي الطّيب خُذْها معك وشكراً. شكراً جزيلاً.

ــ لقد اتفقنا.

ــ حقاً؟ أتأْخُذُها معك؟

ــ إنّني آخذها. وبانتظار ذلك سأدفع لكِ. كم؟

ألقى نظرةً على الحساب وصاحَ: «ثلاثة وعشرون فرنكاً!» ثم نظرَ إلى صاحبةِ النّزلِ وردّد: «ثلاثة وعشرون فرنكاً!»

كان قد أُتيحَ للمرأةِ الوقتَ الكافي لإعدادِ نفسِها فأجابتْ بصوتٍ مُرتفع: «نعم يا سيدي، إنّها ثلاثة وعشرون فرنكاً.»

وضعَ الغريب خمس قطع من فئة الخمسة فرنكات على الطّاولة وقال:

— إذهبي لإحضار الصّغيرة.

في هذه اللّحظةِ تقدّمَ الـزّوجُ تينـارديبه إلى وسـطَ القاعـةِ وقال: «فيما يتعلّقُ بالصّغيرة يجبُ أنْ أتحدثَ مع السيد. دعينا يا زوجتي.»

شعرتْ تيناردييه أنَّ الأمرَ جدي، وأنَّ أمراً جللاً سيحدثُ فخرجتْ دون أنْ تجيب.

قدّم تيناردييه كُرسياً للمسافرُ فجلسَ وبقيَ هو واقفاً وقد كستْ وجهُه إماراتُ الطّيبة والبساطة فقال:

— أصغ إلى ما سأقولُه يا سيدي. إنّني أُحبّ الطّفلة.

نظرَ الغريبُ إلى عينيْهِ وسأله:

— أيّةُ طفلة؟

تابعَ تيناردييه مُتجاهلاً سُؤاله:

— كمْ هذا مُضحك! إنّ المرءَ يتعلّق بسهولة.. إنّي أُحبّ هذه الطّفله..

— مَنْ هذه؟

— صغيرتُنا كوزيت. ألاَ تُريدُ أخْذها؟ حسناً، إنّني أقولُ الحقيقة، فأنا لا أُريدُ أنْ تتركنا، فسأفتقدُ تلكَ الطّفلة لقد رأيتُها صغيرة! صحيحٌ أنها تُكلّف مالاً وصحيحٌ أنّها كاذبة وأنّنا لسنا أغنياء. وصحيحٌ أيْضاً قد دفعتُ أكثرَ من أربعِ مئة فرنـك، لا لشيء إلاّ لمرضٍ أصابهـا. لكنْ على الإنسـان أنْ يفعلَ شيئاً للّه. ليس لها أبٌ ولا أُمٌّ، فربّيتُها ولَديّ خبزٌ لهـا ولِطفلتـيْ. إنّني مُتمسّكٌ بهذه الصّغيرة، وامرأتي، رغمَ أنهـا قاسيةٌ بعضَ الشّيء، تحُبّها أيضاً. أنتَ ترى أنهّا كولدنا وأنـا بحاجةٍ لأنْ تلعبَ حولي.

إستمرّ الغريبُ في النّظرِ إليه فتابعَ:

— أعذرني يا سيدي، لكنّ المرءَ لا يُعطي ولـدَه هكذا إلى عابرِ سبيل. ألستُ على حقّ؟ أنا لا أنكرُ أنّك غنيٌّ وأنّكَ تبدو كرجلٍ في مُنتهى الطّيبة، ولكنْ يجب أنْ أعرفَ عندَ مَنْ هي.. كيْ أذهبَ لِرُؤيتها من وقتٍ لآخر، فتعلمْ أنّنا نهتمُّ ونفكرُ بها. إنّني لا أعـرفُ حتـى اسمـك، فينبغـي أنْ أرى على الأقـل قصاصةَ ورقٍ أو طرفَ جوازِ سفر..

أجابهُ الغريبُ بنبرةٍ جافّةٍ وهـو لا يزالُ ينظـرُ إلى أعماق عينيْه:

ـ يا سيد تيناردييه، إنّ المرءَ لا يحملُ جوازَ سفرٍ ليذهبَ إلى مسافةِ عشرينَ كيلو متراً من باريس. فإذا أخذتُ كوزيت، فإنّني سآخذها وهذا كلّ ما في الأمر. لن تعرفَ إسمي ولا بيتي ولا أينَ ستكون، ولن تراها أبداً طيلةَ حياتها. هل أنت مُوافق أم لا؟

كان تيناردييه قد أمضى أمسيةَ اليومِ السّابقِ في الشّربِ مع الزّبائن والغناء والتّدخين ودراسةِ طباعِ الرّجل لمجرّد اللّذة. فلاحظَ أنّ نظراتَه كانتْ تعود دوماً إلى كوزيت وعرفَ أنّه يهتمّ بها فلماذا؟ ومَنْ هو هذا الرّجل؟ ولماذا يلبسُ ثياباً بائسةً رغم المالِ الوفير؟ فكّرَ في ذلك طولَ الليل. إنّ الرّجلَ لا يُمكنُ أنْ يكونَ أبُ الطّفلة، فهلْ هو جدٌّ لها؟ عندما يكونُ للإنسان حقٌّ فإنّه يُظهره، فليسَ لهذا الرّجل إذن حقّ في كوزيت. مَنْ هو إذن؟ لم يتوصّل تيناردييه إلى فَهمِ اللّغز وبعد أنْ شعرَ بقوّته، بدأ يشعرُ بضعفهِ أمامَ هيئةِ الرّجلِ المصمّمة. لم يكنْ يتوقّع تصرّفاً مُماثلاً، وبنظرةٍ قررّ أنّه قد حانتْ لحظةُ السيرّ قُدماً وبسرعة. قال:

ـ سيدي، يلزمني الف وخمسُ مئة فرنك.

تناولَ الغريبُ من جيبِهِ الجانبيّ محفظةً من الجلدِ الأسود

فتحهَا وأخرجَ منها ثلاثَ أوراقٍ نقديّةٍ من فئة الخمس مئة فرنك. ثم وضعَ قبضتهُ العريضةَ عليها وقال لصاحبِ النّزل:

ـ أحضرْ كوزيت.

وأثناءَ هذه الأحداث ما الذي كانت تفعلُه كوزيت؟

عندما استيقظتْ ركضتْ إلى حذائها فوجدتْ فيه القطعةَ الذّهبيّة. لم تكنْ تعرفُ ما هي، إذ لم تكنْ قد رأتْ مثلَها فأخفتْها بسرعةٍ في جيبها كما لو كانتْ قد سرقتها. ورغمَ ذلك فقد شعرتْ أنّها لها وعرفتْ في قرارةِ نفسها من اين أتتْ.

كان فرحُها لا يزالُ ممزوجاً بالخوف، لكنّها كانتْ سعيدة. كان الغريبُ هو الوحيدُ الذي لا يُخيفها، بل بالعكس. ومنذُ الأمس وحتى خلال نومِها، كانتْ تُفكّر في عقلِها الصّغير بذلك الرّجلِ الذي يبدو عجوزاً فقيراً وهو شديدُ الغنى والطّيبة، فمنذ أنِ التقتْ به في الغابةِ تغيرّ كُلّ شيءٍ بالنّسبةِ لها.

كانتْ كوزيتْ أقلّ حظاً من طيرِ السّماء فلم تعرفْ أبداً ما هيَ الأم. ومنذُ خمس سنوات وهي ابعد فترة تستطيع أنْ تتذكّرها، كانتِ الطّفلةُ المسكينةُ تشعرُ بالوحدةِ أمّا الآن فإنّها تشعرُ للمرّةِ الأولى بشيءٍ دافيءٍ في داخلها، فخففّ خوفُها من

المرأةِ تيناردييه ولم تعدْ وحيدةً بل هناك شخصٌ معها.

بدأتْ عملَ كلّ صباحٍ بسرعة. وكانتْ تلكَ القطعةُ التي تحملها في الجيب الذي سقطتْ منه بالأمس الخمسة عشر غرشاً، تجعلُها تحلم. لم تكنْ تجرؤُ على لمسها لكنّها كانتْ تقضي لحظاتٍ طويلةً بتأمّلِ ذلك النّجمِ البرّاق.

وصلتِ المرأةُ تيناردييه في نفسِ اللّحظةِ التي توقّفتْ فيها كوزيت عن العمل فلم تتلق منها أيّةَ ضربة، وتساءلتْ عمّا حدث. قالتِ المرأةُ بصوتٍ شبهِ عذب.

ـ كوزيت، تعالي فوراً.

بعدَ لحظةٍ دخلتْ كوزيت إلى القاعةِ المُنخفضةِ فأخذَ الغريبُ الرّزمةَ التي أحضرها وفتحهَا ثم أخرجَ منها ثوباً صغيراً من الصّوف، وتنّورةً وجوربينْ وكلَّ الملابسِ اللاّزمةِ لابنةِ ثمانية أعوام، قال الرّجل:

خُذي هذا يا ابنتي فاذهبي والبسي بسرعة.

طَلعَ النّهارُ فرأى سكّانُ مونغارماي الذين بدأوا يفتحونَ أبوابهم رجلاً فقيرَ يمرّ مُمسكاً بيدِ ابنةٍ صغيرةٍ سوداءِ

الثّياب تحملُ دُميةً كبيرةً بين ذراعيْها وقد سلكَ الإثنان طريقَ «ليفري».

إنّه رجلنا وكوزيت. كانتِ الطّفلةُ ذاهبة. مَعْ مَنْ؟ لا تدري! إلى أين؟ لا تدري أيضاً. كلّ ما فهمتُه أنها خلّفتْ وراءَها نزلَ تيناردييه.

لم يفكّر أحدٌ أنْ يقولَ لها: «إلى اللّقاء». ولم تُفكّر هيَ في قولِها لأحد.

* * *

تينارديه يغيّر رأيَه

تركتِ الزّوجةُ تيناردييه كالعادةِ زوَجها يتصرّفُ لوحده، فقد كانتْ تتوقعُ كما قُلنا، أمراً جللاً.

عندما رحَلَ الرّجُل وكوزيت، تركَ تيناردييه ربع ساعة تمضي ثم نادى زوجتَه وأراها الألف والخمس مئة فرنك فقالتْ: «لا شيءَ سوى هذا؟»

كانتْ تلكَ هي المرّةِ الأُولى التي تجرؤُ فيها منذُ بدءِ زواجها على عدمِ استحسان ما فعله زوجُها، وقد وجدَ قولَها صدىً في نفسِ الأخير فقال: «أنتِ على حقٍّ فأنا غبيّ، أعطيني قبّعتي.»

طوى الأوراقَ النّقديةَ الثلاث ووضعها في جيبه ثم خرجَ بأقصى سرُعته. قال له أحدُ الجيران إنّه قد شاهدَ كوزيت والرّجلَ يتجهان ناحيةَ «ليفري» فسارَ بخُطى عريضة وهو

يحدّثُ نفسَه:

«هذا الرّجلُ هو عبارةٌ عن مليون بملابسَ صفراء. لقد أعطى في البدايةِ عشرينَ غرشاً ثم خمسةَ فرنكات ثم ألف وخمس مئة فرنك بنفسِ السّهولةِ. وكان يمُكنُ أنْ يُعطي خمسة عشر الف فرنك. لكنّي سأعثر عليه.

ثم هناك تلكَ الرّزمةَ من الثّيابِ المعّدةِ سلفاً للصّغيرة. كلّ ذلك يَدعو للعجب. إنّ هذا الثريّ ممتلىءذهباً ويجبُ أنْ أعرفَ كيف أحصلُ عليه.»

عندما يخرجُ المرءُ من مونغارماي ويتجاوزُ مُنعطفَ الطّريقِ الذّاهبةِ إلى ليفري، يُرى على الهضبةِ من بعيد. وعندما وصلَ تيناردييه إلى هناك ظنّ أنّه سيرى الرّجلَ والصّغيرة. نظرَ إلى أبعد ما استطاع فلم يرَ أحداً. سألَ ثانيةً فقال له أحدُ المارّةِ إنّ الرّجلَ والطّفلةَ اللّذين يبحثُ عنهما قد دخلا الغابات من جهةِ «غاريني». ركضَ في هذا الاتّجاه. كانا مُتقدّمَيْن عليه لكنّ الطّفلةَ تَسير ببطءٍ وهو يُسرع. ثم إنّه يعرفُ المنطقةَ جيداً.

عبرَ الغابةَ ورأى بعدَ قليلٍ قُبعةً معروفةً منه؛ ليستْ قُبّعةُ الطّفلةِ التي تخُفيها شجرة، بل قُبعةُ الدّمية، فقد جلسَ الرّجُل

كيْ يتركَ كوزيت تأخذُ قسطاً من الرّاحةِ.

دارَ تيناردييه حولَ الأشجار، وظهرَ فجأةً أمامَ مَنْ يبحثُ عنهما قائلاً:

ــ أعذرني يا سيدي، فهذه الألف وخمس مئة فرنك التي لك.

قالها وهو يمدّ للغريبِ الأوراقَ النّقدية الثلاث. رفعَ الرّجلُ رأسهَ وقال:

ــ ما معنى ذلك؟

فأجاب تيناردييه باحترام.

ــ هذا يعني يا سيدي أنّني أستعيدُ كوزيت.

ــ ت ت ت عيد كوزيت؟!

ــ أجلْ يا سيدي، إنّني أستعيدُها وسأقولُ لكَ السّبب: لا يحقُّ لي أنْ أتركهَا لك. إنّ أُمّها هي التي عهدتْ بها إليّ ولا أستطيعُ تسليمهَا إلاّ لأمّها. ستقولُ لي: لكنّ الأمَّ قد ماتتْ. ولذا تلزمني وثيقةٌ مكتوبةٌ مُوقعةٌ منها. هذا واضح.

بحثَ الرّجلُ في جيبه دون أنْ يُجيب ورأى تيناردييه

المحفظةَ ذاتِ الأوراقِ تعودُ للظّهورِ فأسعدَه ذلك وقال في نفسه: «حسناً، سيدفعُ الرّجل.»

قبل أنْ يفتحَ المُسافرُ المحفظةَ، ألقى نظرةً حوله فلم ير أحداً. عندئذٍ فتحهَا وأخرجَ منها بدلاً من الأوراقِ الماليّة التي كانت تيناردييه ينتظرُها، مجرَّد وُريقةٍ قدّمها مَفتوحةً وهو يقول: «أنتَ على حقٍّ، فاقرأ.»

أخذَ تيناردييه الورقةَ وقرأ: «يا سيد تيناردييه. سلّمِ الطّفلة إلى هذا الرّجل.. وستُدفع لكَ كلُّ المبالغِ الصّغيرة. يُشرّفني أنْ أُحيّيكَ باحترام. فانتين.»

عادَ الرّجلُ فقال: «أتعرفُ هذا التّوقيع؟»

كان ذلك هو توقيعُ فانتين، وقد تعرّف عليه تيناردييه فلم يكنْ هناك ما يُجيب به إذ قد هُزم. أضافَ الرّجل:

ــ تستطيعُ الإحتفاظَ بهذه الورقة.

أجابَ صاحبُ النّزل:

ــ ربّما كان هذا التّوقيعُ مُزوّراً!

ثم حاولَ القيامَ بجهدٍ أخيرٍ فقال:

ــ حسناً يا سيدي، أنتَ هو الشّخصُ لكنْ يجب أنْ تدفعَ لي كلَّ المبالغِ الصّغيرة ويحقّ لي الكثير.

نهضَ الرّجلُ مُجيباً.

ـ يا سيد تيناردييه، في كانون الثاني كانتِ الأُمُّ مُدينةً لكَ في حسابِها بمئة وعشرين فرنكاً. وفي شباط طلبتَ منها خمس مئة فرنك تلقّيتَ منها في نهايةِ ذلك الشّهرِ ثلاث مئة، وثلاث مئة أُخرى في مطلعِ آذار. وعن الشّهورِ التّسعةِ الأخيرةِ يستحقّ لكَ مئة وخمسة وثلاثون فرنكاً على الأكثر. وبما أنّكَ قد تلقّيتَ مئة فرنك أكثر ممّا ينبغي، نبقي مدينين لكَ بخمسةِ وثلاثينَ فرنكاً. وها أنا قد أعطيتُكَ ألفاً وخمس مئة فرنك!

صاحَ تيناردييه غاضباً وقد هُزِمَ هذه المرّة أيضاً:

ـ سيدي، إنّني لا أعرفُ إسمك.

ـ ثم أضافَ واصفاً هذه المرة عبارات الإحترام جانباً.

ـ سأستعيدُ كوزيت إذا لم تُعطني خمسة آلاف فرنك.

قال الغريب باطمئنان:

ـ تعاليْ يا كوزيت.

وأمسكَها بِيُسراه والتقطَ عصاه بِيُمناه فلم يجرؤْ تيناردييه أنْ يقولَ شيئاً، ودخلَ الرّجلُ والطّفلةُ الغابة.

وبينما كانا يتقدّمان، تأمّل تيناردييه كتفيْ الرّجلِ العريضَيْن

وقبضتيْهِ الضّخمتيْن ثم عادتْ عيناهُ إلى نفسِه فوقفتا على ذراعيْهِ النّحيلتيْنِ فقال في نفسه: «إنّني حقاً لَشديدُ الغباء لأنّني لم أُحضر معي سلاحاً، لكنّني أُريدُ أنْ أعرفَ إلى اين هو ذاهب.» ثم تَبِعهُ وفي جيبِه قصاصةُ ورقةِ فانتين والألف وخمس مئة فرنك.

قادَ الرّجلُ كوزيت باتّجاه ليفري وهو يسيرُ ببطءٍ خافضَ الرّأسِ. كانَ الشّتاءُ قد أسقطَ أوراقَ الشّجرِ فلم يغيبا عن نظرِ تيناردييه رغمَ بقائِه بعيداً عنهما، ومن وقتٍ لآخر كانَ الرّجلُ يلتفتُ لِيرى ما إذا كان صاحبُ النّزلِ لا يزالُ يلحقُ به. فجأةً دخلَ مع كوزيت في قسمٍ من الغابةِ كثيفِ الأشجارِ يستطيعانِ الإختفاءِ فيه. فأسرعَ تيناردييه الخطى.

أجبرتْه كثافةُ الغابةِ على الإقترابِ فاختبأ بين الأغصان، ولكنْ سرعانَ ما اكتُشفَ أمرُه فألقى إليه الرَّجل نظرةً ثم تابعَ طريقَه فعادَ تيناردييه لِتتبُّعِهِ. فسارَ هكذا مئتيْن أو ثلاث مئة خُطوة. فجأةً إلتفتَ الرجل ثانية ووجّه إلى صاحبِ النّزلِ نظرةً مشحونةً بالوعيدِ والتّهديد لدرجةِ أنَّ هذا الأخير رأى أنَّ الذهابَ إلى أبعد من ذلك أصبح عديمَ الجدوى، فعادَ إلى داره.

عَودَةُ الرَقم ٩٤٣٠ إلى الظهور

لم يمتْ جان فالجان.

فبعدَ سُقوطِهِ في البحر سَبَحَ تحتَ الماء إلى تحتِ مركب، ومن هُناك تمكّن أنْ يصعدَ بسرعةٍ دون أنْ يُرى وأنْ يختبىءَ حتى المساء. وفي اللّيل ألقى بنفسِهِ مجُدّداً في الماءِ وسَبَحَ حتى الأرض بعيداً باتجّاهِ الجنوب. وهناك اشترى ملابساً من صاحبةِ نَزْلٍ ثمّ ذهبَ إلى منطقةِ الالب المُرتفعة فسارَ غالباً في اللّيل وهو يختبىءُ إلى أنْ وصلَ إلى باريس. وقد رأيناهُ منذُ قليل في مونغارماي.

كان أوّلُ ما عُنِيَ به عنـدَ وصولـه إلى باريس هو شراءُ ملابسَ سوداء لبنتٍ صغـيرةٍ في الثامنـة من عمرهـا، ثمّ استئجارُ منزل. كانوا يظنّون أنّه ميّت كما عَلِمَ من الصّحيفة وهذا النّبأُ وفّر له بعضَ الهدوء.

في نفسِ المساء الذي انتزع فيه جان فالجان كوزيت من نزل آل تيناردييه عاد إلى دُخولِ باريس من بابِ «مونو» ومن هناك استقلّ عربةً قادْتهُ إلى ال «أوبسرفاتوار» حيث نزل فنقد السّائقَ أجرَه وأمسكَ بيدِ كوزيت وذهبَ كلاهُما في اللّيلِ المُظلم وعَبْرَ شوارعَ صغيرةٍ إلى جادةِ المستشفى.

كان اليومُ مُتعباً وقد أكلا في الغابات الخبزَ والجبنَ اللّذيْن اشترياهُما من الفنادق. وقد بدّلا عربتهُما عدّةَ مرّات، وسارا طويلاً. رغم ذلك لم تشكُ كوزيت لكنّ جان فالجان شعرَ بتعبها فحملهَا على ظهـره. لفّتْ عندئـذٍ يداً حولَ كاتـرين والأُخرى حول عُنقِ الرّجـل ثم وضعـتْ رأسهَـا على كتفِـه ونامتْ.

وصلَ جان فالجان إلى حيٍّ بائسٍ وكئيبٍ فتوقّف أمامَ الرّقم ٥٢٠٥٠ من جادةِ المستشفى وأخرجَ مفتاحاً من جيْبـه ففتحَ البابَ ثمّ أغلقَه بعناية، بعدها صعدَ الدّرج وهو لا يزالُ يحملُ كوزيت فأضْجعها وجلس.

* * *

تعاستان تخلقان سعادة

فجرُ اليومِ التّالي كان جان فالجان لا يزالُ قُربَ سريرِ كوزيت ينتظرُ دون أنْ يأتيَ بحركةٍ ويتأمّلها وهي تستيقظ.

نفذتْ عاطفةٌ جديدةٌ إلى قلبِه فلم يسبقْ له أنْ أحبَّ أحداً. ومنذُ سنّ الخامسةِ والعشرين، كان وحيداً في العالم. لقد بذلَ كُلّ جُهودِه للعثورِ على أُختِه وأولادِها ولّما لم يُوفّق في ذلك نَسِيَهُمْ.

عندما رأى كوزيت وعندما أخذها وحملَها شعرَ بقلبِه العجوز يتحرّك، فاستيقظَ أفضلَ ما فيه. كان يرتجفُ فرحاً قُربَ السّرير الذي ترقدُ فيه الطّفلةُ ويستعذبُ حركةَ قلبِها الذي بدأ يخفقُ بالحب.

مرّتِ الأيّامُ الأُولى فتغيّرتْ كوزيت هي أيضاً. كانتْ صغيرةً جداً عندما تركتْها والدتُها لذا لم تعدْ تذكرُها. وككلّ الأطفال حاولتْ أنْ تُحبّ فصدّها الجميع، ألزّوجان تيناردييه وطفلتاهُما واطفالٌ آخرون. احبّتِ الكلبَ فمات.. وبعد ذلك لم يرضَ

بها شيءٌ أو أحد ـ لذا ومنذُ اليوم الأوّل أخذتْ تُحبُّ ذلك الرّجلَ العجوز. كانتْ سعيدةً كوردةٍ تتفتّح، ولم يكنْ يبدو الرّجلُ لها عجوزاً ولا فقيراً. كانتْ مُرتاحةً فوجدتْ كذلك الغرفةَ الفقيرةَ جميلة.

أحسنَ جان فالجان إختيارَ دارِه إذْ لا يُمكن لأحدٍ أنْ يعثر عليه فيه، فنافذةُ الغرفةِ التي يَشغلها مع كوزيت تطلُّ على الجادّة، وهي النّافذة الوحيدة في الدّار. وهكذا لا يستطيعُ أيّ جارٍ أنْ يراهُما لا مُواجهةً ولا جانبياً.

كان الطّابقُ الأرضي لبائعي فاكهة، أمّا الطّابقُ الأوّل فتشغلُه عدّةُ غرفٍ كالطّابق الأخير الذي تسكنُه لوحدها أمرأةٌ عجوزٌ تُنظفُ غرفةَ جان فالجان. إنّها هي التي أجّرتْهُ الغرفةَ عندما تقدّم لها يومَ الميلاد وقال لها أنّه قد أجرى صفقاتٍ خاسرةً فأضاعَ مالَه وأنّه سيأتي للسّكن هناك مع حفيدتِه.

* * *

ملاحظةُ العجوز

لم يكنْ جان فالجان يخرجُ أبداً أثناءَ النّهار، بل يتنزه كلَّ مساء، وعندَ حلولِ اللّيلِ لساعةٍ أو لساعتيْن، تارةً لوحدِه، وعلى الغالب مع كوزيت. وكان يتبعُ الشّوارع التي يقلّ فيها عَدَدُ المارّة ويذهبُ غالباً إلى كنيسة «سان ميدار» وهي الاقربُ لدارِه وعندما لا يَصطحب كوزيت، كانتْ تبقى مع المرأةِ العجوز، لكنّ فرحَ الطّفلة كان بالخروجِ مع الرّجل العجوز.

كانتْ تُفضّلُ الخروجَ معه على اللّعبِ مع كاترين، فكان يمشي مُمسكاً بيدِها وهو يقول لها أشياءَ حُلوةً تجعلُها مرحةً جداً. بينما كانتِ العجوزُ تطهو الطّعامَ وتبتاعُ المؤن.

كانا يعيشان كأُناسٍ فقراء جداً فلم يغيرّ جان فالجان شيئاً من أثاثِ المنزل بَلِ استبدلَ فقط باب غُرفة كوزيت الزّجاجي بآخر من الخشب وكانتْ هناك نارٌ طيّبةٌ مُوقدةٌ طولَ الشتاء في الموقدة.

إستمرّ بارتداء سُترته الصّفراء وسرواله الأسود وقبّعته القديمة. وفي الشّارعِ كان يبدو كفقيرٍ فيُحدثُ أحياناً أنْ تلتفتَ نساءٌ طيّبات ويُعطينه قرشاً فيأخذه جان فالجان ويُحيّي بانحناءةٍ عميقة. وكان يحدثُ له أيضاً أنْ يُصادفَ بائساً فينظرُ خلفهَ ليرى ما إذا كان أحدٌ يُراقبه ثم يضعُ قطعةَ نقود في يدِ التّعس. وهذا ما جعلَه معروفاً في الحي.

إهتمّت البّوابةُ كثيراً بجان فالجان دون أنْ يشكّ بذلك. كانتْ صمّاءَ بعضَ الشّيء لكنّها كثيرةُ الكلام. بقيَ لها سنّان، أحدهُما في الأعلى والآخر في الاسفل، يصطكّان فيُحدثان صوتاً خفيفاً عندما تتكلّم. طرحتْ أسئلةً على كوزيت التي لم تكُن تعرفُ شيئاً، كلّ ما قالتْهُ لها أنهّا أتتْ من مونغارماي.

وذاتَ صباحٍ رأتْ جان فالجان يدخلُ إحدى غُرفِ الطّابق غيرِ المسكونةِ فتبعتْهُ كهرّةٍ واسترقتِ النّظرَ من بين خشبتي الباب. كان جان فالجان يُولي ظهرَه لهذا الباب، فرأتْهُ العجوزُ يبحثُ في جيبٍ يأخذ منه علبةً صغيرةً ويُخرج منها مقصّاً وخيْطاً. ثم بدأ يفكُّ خياطةَ أسفلِ سُترته. أخرجَ منها قطعةَ ورقٍ صفراء فَردَها فرأتِ العجوز أنهّا ورقةُ نقديّةٌ من فئة الالف فرنك وكانتِ الثّانية أو الثالثة التي تراها منذُ أنْ وُلدتْ.

بعد قليلٍ أتى جان فالجان إليها وطلبَ منها ان تَذهبَ لاستبدالِ ورقةِ الالفِ فرنك مُضيفاً أنّه قد قبضها بالأمسِ .

تساءلتِ العجوز: «كيفَ وهو لم يخرج إلاّ عندَ السّاعةِ السادسة مساءً فقط والمكاتيبُ لا تَبقى عادةً مفتوحةً في تلك الساعة؟» ذهبتْ لاستبدالِ الورقة وقصّتِ الأمرَ على كلِّ بوابات الحى.

بعدَ بضعةِ أيام كان جان فالجان ينشرُ خشباً أمامَ بابِ غرفته وقد رفعَ كمّيْ قميصِه وكانتْ كوزيت تُتابع ما يفعلُه. رأتِ العجوزُ السّترةَ الصفراء مُعلّقةً على مسمار فتحسّستْها وأحسّت بالورق. إنها بدون شكٍّ أوراقٌ أُخرى من فئةِ الالف فرنك.

لاحظتْ علاوةً على ذلك أنَّ الجيوبَ لا تحوى فقط علبةَ المقصّ والخيوط التي رأتْها بل مِحفظةً ضخمةً وسكّيناً كبيراً وشعراً مُختلفَ الألوان.

* * *

رَحيلٌ في الليل

قُربَ كنيسة سان ميدار يجلسُ دوماً فقيرٌ إلى جانبِ بئرٍ قديم. إنّه رجلٌ عجوزٌ في الخامسةِ والسّبعين من عمره لا ينقطعُ عن تلاوةِ الصّلوات. لا يمرّ جان فالجان قُربَه دون أنْ يُعطيَه بعضَ المال وقد يُحدّثه أحياناً.

وذاتَ مساء بينما كان جان فالجان ماراً من هناك. ولم تكنْ كوزيت برفقتِه رآه وكان كعادتِه يُصلّي بخشوع وهو منحنٍ نحو الأرض. وضعَ جان فالجان في يده قطعةَ نقود. فرفعَ الرّجلُ عينيْهِ وتأمّله ثم خفضَ بصره. كلُّ ذلك حدثَ بسرعةِ البرق. لكنّ جان فالجان اعتقدَ أنّه قد رأى وجهاً معروفاً.

تراجعَ دون أنْ يجرُؤَ على التّنفس أو الكلام أو البكاء أو الهرب، وهو ينظرُ إلى الفقير الذي أحنى رأسَه المغطّى بخرقةٍ والذي بدا عليه أنّه لم يعدْ يشعرُ بوجوده هناك. كان للفقيرِ نفسُ المظهرِ الذي عرفَه في الماضي لـ . . . ، أسرعَ جان فالجان واستبعد

تلك الفكرة قائلاً في نفسه: «إنّني مجنون، فذلك غيرُ ممكن.» ثمّ انصرفَ وهو لا يكادُ يجرؤُ أنْ يُصارحَ نفسَه أنَّ ذلك الوجه الذي رآه هو وجهُ جافير.

وفي اليوم التّالي عادَ عندَ هبوطِ الظّلام فوجدَ الفقيرَ في مكانه. قال له جان فالجان وهو يُعطيه غرشاً: «يوماً سعيداً يا صديقي.» فرفعَ الفقيرُ رأسه وأجابَ بصوتٍ هادىء: «شكراً يا سيدي الطّيب.» كانَ هو نفسُ الرّجلِ العجوزِ الموجود هناكَ كلّ يوم، فمضى جان فالجان وهو يَضحك ويقول لنفسِه: «ماذا! هل سأحلمُ الآن بجافير؟» ثمّ لم يعدْ يفكّر به. وبعد بضعةِ أيام، وحواليْ السّاعةِ الثّامنةِ مساءً، كان في غُرفته يُعلّم كوزيت القراءةَ عندما سمعَ بابَ الدّارِ يُفتح ثُم يُغلق فأدهشه ذلك لأنّ العجوزَ تنام دائماً عند حُلولِ اللّيل.

أشارَ جان فالجان إلى كوزيت أنْ تسكتَ فسمعَ أحدهم يصعدُ الدرج. كانتِ الخطى ثقيلةً لها وقعُ خُطى رَجُل. أطفأَ جان فالجان القنديلَ ووضعَ كوزيت في سريرها. وبينما كان يُقبّل جبهتَها توقّفتِ الخطى فبقيَ جان فالجان دون حَراكٍ وقد أدارَ ظهرَه إلى الباب. وبعد وقتٍ طويل لم يعدْ يسمَعُ شيئاً فاستدار دون أنْ يُحدث ضجّةً ورفعَ عينيْه نحو البابِ فرأى ضوءاً تحتَه. كان هناك دون شك مَنْ يحملُ قنديلاً ويُصغي.

انقضتْ بضعُ دقائق قبلَ أنْ يذهبَ الضّوءُ لكنّه لم يسمعْ أيَّ وقعِ خُطى مّما يعني أنَّ مَنْ أتى للإنصات قد خلعَ حذاءه.

ارتمى جان فالجان بملابسِه على سريره دون أنْ تغمضَ عينُه طولَ اللّيل.

وعندَ طلوعِ النّهار، كان على وَشْكِ أنْ ينامَ من التّعب عندما أيقظَه صوتُ بابٍ يُفتح وهو أبعدُ من غرفتِه بقليل ثمّ سمعَ نفسَ خُطوةِ الرّجل التي صعدتِ الدّرج بالأمس، فارتمى عندَ أسفلِ السّرير ووضعَ عينَه على ثُقبِ البابِ مُحاولاً أنْ يرى. مرّ الرّجلُ دونَ أنْ يتوقّفَ ومَنَعهُ الظّلامُ الحالكُ من رُؤيةِ وجهِه. لكنّ ظهرَه بدا عند وصوله إلى السّلم. كانَ الرّجلُ مديدَ القامةِ، يرتدي سُترةً طويلةً ويُمسكُ تحت ذراعِه عصاً غليظةً. إنّه جافير.

كان بوسعِ جان فالجان أنْ يُحاولَ رُؤيتَه ثانيةً من نافذتِه المُطلّة على الجادّة ولكنْ عليه أنْ يفتحَ هذه النّافذةَ وهو ما لم يجرُؤ عليه. لقد دخلَ هذا الرّجلُ بمفتاحٍ كما يَدْخُلُ إلى بيتِه. فَمَنْ أعطاهُ ذلك المفتاح؟ وما معنى ذلك؟

عندَ السّاعةِ السّابعةِ صباحاً أتتِ العجوزُ لِتنظيفِ الغرفةِ فتفحّصها جان فالجان بانتباهٍ لكنّه لم يطرحْ عليها سؤالاً.

كانتْ حالُ المرأةِ الطّيبةِ هي نفسُ حالِها كلّ يوم فقالتْ له وهي تكنُس:

ــ ربّما سمعَ سيدي بعضهَم يدخلُ هذه اللّيلة؟

فأجابها بشكلٍ طبيعي:

ــ هذا صحيحٌ، فمن هو اذن؟

ــ شخصٌ أتى لِيسكنَ هنا.

ــ ويُدعى؟

ــ لا أدري، السيد «ديمون» أو «دومون» إسمٌ من هذا القبيل.

ــ ومَنْ هو السيد ديمون هذا؟

ــ رجلٌ يعيشُ من مالِه مثلُك.

ما الذي أرادتْ قولَه؟ ربّما لم تعنِ شيئاً. لكنّ الشّكّ تسرّبَ إلى قلبِ جان فالجان.

عندَ حلولِ اللّيلِ نزلَ وتطلّع بانتباهٍ إلى كُلِّ جهاتِ الجادّة فلم يرَ أحداً. صعدَ وقال لكوزيت: «تعالي» ثم أمسك بيدِها وخرجا.

المطاردة

كان القمرُ بدراً في تلك اللّيلةِ فَسُرّ جان فالجان بذلك. لكنّه كان لا يزال مُنخفضاً في السّماء يرسمُ في الشّوارع ممراتٍ من الظّلال والنّور. مشى جان فالجان بمُحاذاةِ البيتِ والجدرانِ من الجهةِ المظلمةِ وهو ينظرُ إلى الجهةِ المُضيئة دون أنْ يُفكّرَ أنّ هناك آخرين يختبئون أيضاً في الظّلام.

سارتْ كوزيت دون أنْ تقول شيئاً. فحياتُها الماضية عوّدتها ألاّ تطرحَ أسئلة ثمّ إنها لم تكنْ تخافُ إلى جانبِ هذا الرّجل.

كان جان فالجان ككوزيت يجهلُ إلى أين هو ذاهبٌ إذ لم تكنْ لديْه فكرةٌ محُدّدة ولم يعدْ مُتأكداً أنّه قد تعرّف إلى جافير. ألاَ يعتقدُ هذا الأخير أنّه ميّت؟ لكنّ أموراً غريبةً حدثتْ في الأيام الأخيرة، وفي هذا يكفي كي يبحثَ كحيوانٍ مُطاردٍ عن جُحرٍ جديد يختبىءُ فيه.

إنعطفَ جان فالجان في حيّ «موفتار» وتبعَ شارعَ «سانسيه» ثم شارع «كوبو» فشارع باتوارسان فيكتور وشارع بئر النّاسك. كانتْ هناك فنادق لكنّه لم يدخلْها. ومع ذلك فقد كان مُقتنعاً بأنْ لا أحدَ يتعقّبه.

وبينما كانتِ السّاعةُ تدقُّ الحاديةَ عشرةَ في «سانت اتيان دي مون» انعطفَ في شارع «بونتواز» فرأى ثلاثةَ ظلالٍ على ضوءِ أحدِ المصابيح. قال لكوزيت «تعالي يا طفلتي!» وأسرعَ في سيْرِه.

من شارعٍ إلى شارعٍ بلغ شارع «نوف سانت كاترين» و اختبأ قُربَ مكانٍ مُضاء، وراءَ أحدِ الأبواب.

لم تمضِ عليه هناك خمسُ دقائق حتى ظهرَ رجالٌ أربعةٌ كلّهم طوالٌ يرتدون معاطفَ بُنّيّةً طويلةً وقُبّعاتٍ مُستديرةً ويحملون عِصيّاً غليظةً في أيْديهم.

توقّف الرّجال تحتَ المصباح، وكان يبدو عليهم أنّهم لا يَدرونَ ما الذي يجبْ أنْ يفعلوه. التفتَ مَنْ كان يَظهرُ أنّه يقودُهم ودلّ بيدِه على الإتجاه الذي تَبِعه جان فالجان، وبدا على شخصٍ آخر أنّه يريدُ سلوكَ الإتجاه المعاكس. وفي

اللّحظةِ التي التفتَ فيها الأول، أضاءَ القمرُ وجهَه مُباشرةً فعرفَ جان فالجان فيه جافير.

أمّا جافير فلم يكنْ مُتأكداً من جهتِه أنَّ جان فالجان هو من يتعقّبهُ لذا لم يجْرُؤ بعد على اعتقاله.

خرجَ جان فالجان من وراءِ الباب حيثُ اختبأ وتابعَ سيْرَه في شارعِ البوسطة نحو منطقةِ النّبات. بدأتْ كوزيت تتعبُ فأخذَها بين ذراعيْه وحملها. لم يكنْ هناك مارّةٌ ولم تكنِ المصابيحُ قد أُضيئتْ بعد.

ومن حديقةِ النّبات وصلَ إلى أرصفةِ نهر «السين» وهناك التفتَ ولم يجدْ وراءَه فتنفّسَ الصّعداء.

وصلَ إلى جسر «اوسترليز» وكان عليه حينئذٍ أنْ يدفعَ رسمَ العبور. تقدّم من المكتبِ ودفع قرشاً فطلبَ الحارسُ قرشيْن قائلاً: «إنّك تحملُ طفلةً تستطيعُ السّير فادفعْ عن اثنيْن. دفع لكنّه لم يكنْ راضياً لأنّه لفتَ النّظرَ إليه.

إجتازتْ عربةُ نهرَ «السين» في نفسِ الوقتِ فتمكّن من عبورِ الجسرِ في ظلّ تلكَ العربة، واعتقدَ أنّه قد أصبحَ في مأمنٍ من الخطر. صحيحٌ أنّه ما زالَ مطلوباً لكنّه لم يعد

متبوعاً. في الجهةِ الأُخرى من الجسرِ يبدأ شارعٌ مظلمٌ دَخَلَه والتفتَ ورأى من هناك جسر أوسترليتز بكلّ طوله وقد دخله أربعةُ ظلالٍ أداروا ظهرهم إلى حديقةِ النّبات.

هذه الظّلالُ الأربعةُ هي لأربعةِ رجال. بقيَ لجان فالجان الأملَ في ألاّ يكون هؤلاء الرّجال قد رأوه ساعةَ دخولـه إلى الشّارع الصّغير، وقد يتمكّن باتّباعِهِ من الوصولِ إلى الحقولِ والأراضي الغير مبنيّة.

في الشوارع المظلمة

بعدَ ثلاثِ مئة خُطوة، وصلَ إلى مكانٍ ينقسمُ فيه الشّارعُ إلى قسمينِ؛ فأيّةَ جهةٍ يختار؟ إنعطفَ نحو اليمين ولم يعـودا يسيران بسرعةٍ كبيرة. إضطّرَ جان فالجان لحملِ كوزيت التي أسندتْ رأسَها إلى كتفِ الرّجل العجوز دون أنْ تفوه بكلمةٍ واحدة.

كان يلتفتُ من وقتٍ لآخر وينظرُ وهو يعني بالبقاءِ دوْماً في الجهةِ المُظلمة. كان الشّارعُ مُستقيماً وراءَهُ. وفي أوّلِ مرتيْن أو ثلاث التفتَ فيها لم يرَ شيئاً. كان الصّمتُ عميقاً فتابَع سيْره وهو أكثرُ اطمئناناً. إلتفتَ فجأةً فخُيِّل اليه أنّه يرى في القسمِ الذي مرَّ به من الشّارع شيئاً يتحرّك في الظّلام.

سارَ بأقصى ما يستطيعُ من سرعةٍ آملاً أنْ يجدَ شارعاً جانبيّاً فوجدَ اثنيْن وسلكَ ذلكَ الذي على اليسار فوصلَ إلى جدار.

عاد أدراجهَ لِيسلُكَ الشّارعَ الأيمن، لكنْ بعد فواتِ الأوان فقد كان ينتظره رجلٌ في الزّاوية.

تراجعَ جان فالجان. ما العمل؟ إنّ جافير يعرفُ الحيَّ بالتّأكيد وقد أرسلَ أحدَ رجالِه إلى الأمام.

عادَ إلى الخلف ونظرَ في كلِّ اتجّاه ثم حاولَ أنْ يدفعَ باباً أوّلاً فثانياً لكنْ دون جدوى. أمّا النّوافذُ فكانتْ مُرتفعة ومُغلقة، عادَ الى الجدارِ فرأى وراءه أغصانَ شجرة. كانت هناك دون شك حديقةٌ قريبةٌ لكنْ كيف الدْخولُ إليها؟ في هذِه اللّحظةِ سُمعتْ ضجّةٌ مكتومة. تطّلع جان فالجان فرأى أسلحةً تلمعُ في زاويةِ الشّارع. كان هناك سبعةُ أو ثمانية أشخاص يتّجهون نحوَه وفي مقدّمتهم جافير. كانوا يسيرون ببطءٍ ويتوقّفون فينظرون إلى كلّ زوايا الجدران والأبواب والطّرق.

ومن طريقةِ سيْرهم وتوقّفهم كان يلزمُهم ما يقربُ من ربع ساعة للوصولِ إلى مكانِ وجودِه. بعدَ دقائقَ سيُقبض عليه وسيُسجن للمرّة الثّالثة. إنها لحظةُ مُرعبة. ولن يكودَ السّجنُ مجرّدَ سجنٍ فقط بل ستضيعُ كوزيت إلى الأبد.

لم يكنّ هناك سوى حلٍّ واحدٍ ممكن. لقد تذكّرَ أنّه عرفَ كيف يتسلّق دون سلّم زوايا الجدران بمُساعدةِ كتفيْه ورأسه ويديْه وركبتيْه وساقيْه وقدميْه.

قاسَ جان فالجان بعينهِ الحائطَ الذي يخفي الشّجرةَ فوجدَ أنّ ارتفاعه يُقارب السّتة أمتار. كان على اليمين كومةُ حجارة يبلغُ

ارتفاعُها المترين تقريباً. بقيت أربعةُ امتار. كانت الصّعوبةِ تتمثّلُ في كوزيت التي لا تعرفُ أنْ تتسلّق جداراً فهل يتركُها هناك؟ إنّه لا يفكر في ذلك. لكنّ حملَها مُستحيل فكلّ قواهُ لازمةٌ له وأقلّ وزنٍ قد يُسقطه.

هناك حاجةٌ ماسّةٌ لحبل، وليس لدى جان فالجان حبل فأين يجدُه في مُنتصف اللّيل وفي شارع «بولونو»؟ لو كان جان فالجان ملكاً في هذه اللّحظةِ لاستبدل مملكتَه بحبل.

بحثَ فما الذي رآه؟ مصباحٌ ضخمٌ في أعلى عمودٍ خشبيٍّ، أحدُ تلك المصابيحِ التي تُنزل بحبلٍ عندَ هبوط الظّلام كي تُضاء. كان الحبلُ يعبرُ الشّارع وينتهي في خزانةٍ حديديّةٍ صغيرة. وبقفزةٍ واحدة كان جان فالجان قُربَ الخزانة ففتحَها بنصل سكّينه. بعدَ لحظةٍ عادَ إلى قُربِ كوزيت وهو يُمسكُ بالحبل.

قُلنا أنّ المصباحَ لم يُضأ تلك اللّيلةِ، لذا كان مُمكناً أنْ يمرَّ المرءُ بجانبِ العمود دون أنْ يُلاحظ أنّه لم يعُد في مكانه.

في هذه الأثناء بدأتْ كوزيت تخافُ من السّاعةِ المتأخّرةِ والمكان والظّلام ومن كلِّ ما يقومُ به جان فالجان، وأيّ طفلٍ آخر كان قد أطلق صيحاتٍ عالية مُنذ وقتٍ طويل أمّا هي فقد

كانتْ تكتفي بشدِّ جان فالجان من سُترته. وبالقربِ منها كان يُسمع صوتُ مَقدَمِ الجنود.

قالتْ بصوتٍ مُنخفض: «إنّني خائفةٌ يا أبي، فَمَنِ القادمُ هُناك؟

ـ صَهْ! إنها تيناردييه.

أخذتْ كوزيت ترتجفُ فأضاف: «لا تقولي شيئاً، ودعيني افعل. إذا صحتِ أو بكيتِ فستستعيدُكِ تيناردييه»

عندئذٍ، ودون أنْ يَسمحَ لنفسِه أنْ يُفكّر بأنّ جافير يُمكن أنْ يصلَ من لحظةٍ لأخرى، فكَّ ربطةَ عُنقهِ ببطءٍ ولفّها حولَ جسمِ كوزيت بشكلٍ لا تستطيعُ معه جرحَ الطّفلة ثم ربطها بطرفِ الحبل وأمسكَ بطرفِ الحبل الاخربين أسنانه ونزعَ قبّعتَه وحذاءه وجوربيْهِ فرماها من فوقِ الجدار. بعد ذلك صعدَ على كومةِ الحجارة وبدأ يتسلق زاويةَ الجدار بنفسِ السّهولة التي يرتقي بها سُلّماً.

لم تمضِ نصفُ دقيقةٍ حتى كانتْ ركبةُ جان فالجان فوقَ الحائط. نظرتْ إليه كوزيت فاغرةَ الفم دون أنْ تنبسَ ببنتِ

شَفة فقدْ حوّلها التّفكير بتيناردييه إلى حجر. ثم سمعتْ جان فالجان يقولُ لها: «لا تخافي» وشعرتْ بنفسها تُنتزعُ من الارض. وقبلَ أنْ يتوفّر لها وقتُ التّعرف على نفسها كانتْ في أعلى الجدار.

وضعهَا جان فالجان على ظهرِه ثم أخذ يديْها الصغيرتيْن في يده اليُسرى وتتبّع الجدار. ظهرَ سطحٌ نبتَتْ شجرةٌ كبيرةٌ قربه ولحسنِ الحظّ فقد كان الحائطُ أعلى في هذه الجهة منه في جهةِ الشارع.

كان جان فالجان لا يزالُ على الجدارِ ولم يصعدْ إلى السّطحِ عندما سمعَ صوتَ جافير يقول تحته تقريباً: «أُنظروا الى هذه الزّاوية المظلمة. إنّ شارعَ الجدار المُستقيم محروسٌ وكذلك شارع بيابيس. وأنا متأكِّد من أنّه في الدّاخل.»

دخلَ الجنودُ إلى الشّارعِ الصّغير فنزلَ جان فالجان من على السّطح وبلغ الشّجرةَ ثم قفزَ إلى الأرض. لم تقلْ كوزيت شيئاً إمّا بسببِ الخوفِ وإمّا بسببِ الشّجاعة. غيرَ أنّ يديْها فقط قد أُصيبتا ببعضِ الأذى.

المشَاكِلُ الأولى[1]

وجدَ جان فالجان نفسَه في ما يُشبه حديقةً كبيرة، من تلك الحدائقِ الكئيبةِ التي تبدو وكأنّها قد صُنعتْ لِتُشاهدَ ليلاً في فصلِ الشتاء. غُرسَ في عُمقها أشجارٌ كبيرة، بينما يتوسّطها بئرٌ قديم وخضار بالإضافة الى مقاعدَ حجريّةٍ. وتحتَ السّطح الذي تبعه للنّزول، رأى غرفةً صغيرة صُنعتْ فيها بعضُ الأدوات.

كانتِ الدّار الكبيرةُ الواقعةُ في زاويةِ شارع الجدار المستقيم وشارع ببكييس الصّغير تبدو أكثرَ كآبةً في الدّاخل منها في الخارج، فكلّ نوافذِها مُغلقةٌ بإحكام ولا ينفذُ إليها أيُّ نور.

لم يكنْ يرى أيَّ بيتٍ آخر وكان طرفُ الحديقةِ يختفي في الضّباب واللّيل.

بحثَ جان فالجان عن جوربيْه وحذاءه فانتعلهُما ثم دخل إلى الغرفةِ الصّغيرة. كانتِ الطّفلةُ التي لم تنقطعْ عن التفكير

بتيناردييه سعيدةً بالإختباء، ومع ذلك فقد كانت ترتجفُ وتلتصقُ به. كانتْ جَلَبَةُ الجنودِ تُسمع من الجهة الأخرى من الحائط وكذلك ضرباتُ أقدامهم على الأبواب ونداءات جافير الموجّهة إلى الشّرطة الذين أوقفهم هناك.

مرّتْ ربعُ ساعة كان جان فالجان يتنفّس خلالَها ببطءٍ وقد وضعَ يدَه بلطفٍ على فم كوزيت. وأخيراً عاد الهدوء.

فجأةً سُمعتْ ضجةٌ جديدةٌ خفيفةٌ جداً. إنّها أصواتُ نساءٍ وأطفالٍ في نفسِ الوقت من تلكَ الأصواتِ الغير أرضيّة والشّبيهةِ بالأصواتِ التي يسمعُها المولودون الجُدد والموتى. كان الغناءُ يصدرُ عن بيتِ الحديقة المُظلم.

سكتَ الغناءُ غيرُ المألوف في بيتٍ خال، ولم يَعُدْ هنالك ايّ شيء في الشّارع أو الحديقة، وحدها كانتْ بعضُ الأعشابِ اليابسةِ تُحدثُ صوتاً خفيفاً تحتَ تأثير الرّيح

كانتِ السّاعة الواحدة أو الثامنة صباحاً. لم تكنْ كوزيت تقول شيئاً، وان كانتْ قد جلستْ أرضاً إلى جانبه وأحنتْ رأسَها عليه، فقد اعتقدَ جان فالجان أنها نائمة. انحنى ونظرَ إليها. كانتْ عيناها مفتوحتيْن فآلمته هيئتها المفكّرة وهي لا تزالُ ترتجف.

قال لها: «ألديك رغبةٌ في النّوم؟» فأجابت: «إنّني أشعرُ بالبرد»

ثم عادتْ فقالت بعد لحظة: «ألا تزال هنا؟»

ـ مَنْ؟

ـ السيدة تيناردييه.

آه! لقد ذهبتْ فلا تخافي.

شعرتِ الطّفلةُ وكأنّ ثقلاً قد أُزيحَ عن صدرها. كانتِ الأرضُ باردةً والغرفةُ مفتوحةً من كلّ جهة، فخلعَ الرّجلُ سترتَه ولفَّ بها كوزيت ثم سألها: «هل خفّ شعورك بالبرد هكذا؟»

ـ أجل يا أبي.

ـ حسناً، إنتظريني لحظةً فأعود.

خرجَ مُتتبّعاً الدّار الكبيرة فصادفَ أبواباً لكنّها كانتْ مُغلقة. رأى بعضَ الضوء في النّوافذ فنظرَ من إحداها وكانتْ تُطلّ ككلّ النّوافذ الأُخرى على قاعةٍ كبيرةٍ مُظلمة يلمعُ فيها مصباحٌ صغيرٌ واحد. وعلى حجارةِ الأرض العريضةِ كان هناك شكلٌ ممدّدٌ يُشبه الثّعبان.

تشجّع جان فالجان وألصقَ جبهتَه بالزّجاج وانتظرَ ليرى ما إذا كان هذا الشّكل سيتحرّك. طالَ انتظارُه ولم يحدُث شيء. فجأةً تملّكهُ الخوفُ فهرب. خُيّلَ إليه أنّه اذا أدارَ رأسَه فسيرى الشّكلَ يمشي خلفَه بخطىً عريضةٍ وهو ممدودُ الذّراعين. تحالفَ ضدّه البردُ والشّرطيّون وجافير فأُصيبَ بالحمّى.

ركضَ نحو كوزيت فوجدَها نائمة.

كانتِ الطّفلةُ قد أسندتْ رأسَها إلى حجرٍ فجلسَ بقربها وتأمّلها. شعرَ أنّه طالما كانتْ هناك، وطالما بقيتْ إلى جانبه فلن يحتاجَ لشيءٍ ولن يخشى شيئاً. حتى إنّه لم يدر أنّه قد بردَ جداً لأنّه خلعَ سترتَه لِيغطّيها بها.

في هذه الاثناء ومن خلال أحلامه. كان يسمعُ منذ بعض الوقت صوتاً غريباً هو صوتُ جرسٍ صغيرٍ يُذكّرُ بقطيعٍ يمرّ ليلاً على جبل. هذا الصّوتُ جعله يلتفتُ فنظرَ ورأى شخصاً في الحديقةِ. إنّه كائنٌ يشبه الانسان يسيرُ وسطَ الخضار فينهضُ وينحني ويتوقّف ويبدو أنّه يعرج.

عادتْ رجفةُ التّعساء المستمرة فاستولتْ على جان فالجان. كان كلُّ شيءٍ ضدّهما، فعليهما أنْ ينتبها لكلّ النّاس ولكلّ شيء. قال لنفسه: ربّما لم يذهب جافير وتركَ دون شك

أُناساً في الشّارع، فإذا رآه هذا الرّجل فسيصرخ حتماً: إلى السّارق. أخذَ كوزيت بين ذراعيْه وحملها إلى وراءِ كومةٍ من الأثاث القديم في أشدّ زوايا الغرفةِ ظلاماً، فلم تتحرّك.

من هناك نظرَ إلى الرّجل بين الخضار، وكان صوتُ الجرسَ الصّادر عن جرسٍ مربوطةٍمُضحكاً. كان هذا الصّوتُ يتبعُه ويتوقف بتوقّفه. هناك جرسٌ مربوطٌ إليه ولكنْ ما معنى هذا؟ ومَنْ هو ذلكَ الرجلُ الذي يتصرّف بهذا الشّكلِ الغريب؟

وبينما هو يطرحُ على نفسِه هذه الأسئلةَ لمسَ يديْ كوزيت فوجدهُما ببرودةِ الجليد وقال: «آه! يا إلهي!» ثم نادى بصوتٍ مُنخفض: «كوزيت!» فلم تفتحْ عينيْها. أخذهَا بين ذراعيْه وحرّكَ رأسَها فلم تَقِفْ. عند ذلك تساءل: «أيُمكن أنْ تكون قد ماتتْ؟» ثم وقفَ وهو يرتجفُ من قمّة رأسه إلى أخمص قدميْه، وتمرّ في خاطرِه أشدُّ الأفكار هوْلاً.

تَهاوتْ كوزيت عِندَ قَدَميهِ شاحِبةً دُونَ حِراك، أصغى فوجَدَ أنهَا تتنفّس لكنّ تنفّسها كان ضعيفاً يوشك أن يخبو.

كيف السّبيل إلى تدفئتِها وإيقاظها؟ تبدّدتْ كلّ فكرةٍ أُخرى فركضَ إلى خارجِ الغرفةِ كي يؤمن لكوزيت السّريرَ والنّار قبل انقضاء ربع ساعة.

الرَّجُلُ ذو الجَرَس

إتّجه جان فالجان مُباشرةً إلى الرّجل الذي رآه في الحديقةِ وفي يده القِطعُ النّقديّة التي أحضرها معه.

كان الرّجل خافضَ الرّأسِ فلم يَرَهُ آتياً. وببضعِ خُطواتٍ أصبحَ جان فالجان قُربَه وصاحَ به: «مئة فرنك!» قفزَ الرّجل إلى الخلف فعادَ جان فالجان للقول: «يمُكنكَ أنْ تكسبَ مئة فرنك إذا خبّأتني هذه اللّيلة»

أضاءَ القمرُ وجهَ جان فالجان فقال الرّجل: «هذا أنت أيها الأب مادلين.»

تراجعَ جان فالجان عند سماعِه هذا الاسم في تلك السّاعةِ وفى هذا المكان المجهول يلفظُه ذلكَ الرّجل المجهول. كان يتوقعّ كُلّ شيء ما عدا ذلك. كان المتحدّثُ رجلاً عجوزاً يرتدي تقريباً ملابسَ فلاّح، وقد ربطَجَرَساً إلى ركبتِه اليُسرى أمّا وجهُه فكانَ يستُره الظّلام.

في هذه الأثناء نزعَ الرّجل العجوزُ قبّعته وصاح: «آه يا الهي! كيف وصلتَ إلى هنا أيها الأب مادلين؟ من أينَ دخلتَ؟ هل هبطتَ من السماء؟ إذا كان لكَ أنْ تهبطَ فستهبطُ من هناك. ما هذه الملابس! إنّك لا ترتدي ربطةَ عنقٍ ولا تعتمرُ قُبعةً ولا تلبسُ بذلةً! أتدري أنّه كان بوسعك أنْ تخيفَ من لا يعرفُك؟ لا بذلة! يا إلهي! هل أصبحَ القدّيسون مجانين الآن؟ لكنْ كيف دخلتَ إلى هنا؟

كان العجوزُ الطّيبُ يتكلّم بسرعةٍ كمنْ يصمتُ غالباً.

سأل جان فالجان: «ومن أنت؟ وما هذا البيت؟

صاحَ الرّجلُ العجوز: «آه! إنّني مَنْ وظّفتُه هنا وهذا البيتُ هو الذي أدْخلتَني إليه. كيف! ألا تتعرّف علي؟

ـ كلا! فكيف تعرّفتَ عليّ أنت؟

ـ لقد أنقذتَ حياتي.

ثم استدارَ فأضاءَه القمر وتعرّف جان فالجان فيه على فوشليفان العجوز فقال:

ـ آه! هذا انت. نعم. إنّني أتعرّف عليك.

أجابَ العجوزُ بهيئةٍ تنمُّ عن عَدَمِ الرّضى:

ـ لحسن الحظ.

ـ وما الذي تفعلُه هنا؟

ـ إنّني أعطي خضاري.

ثم تابع: «لقد قلتُ في نفسي: إنّ القمرَ منيرٌ وسيبردُ الطّقس. لكنْ كيف أنتَ هنا؟

لم يدرِ جان فالجان بم يُجيب فشرعَ يَطرحُ السّؤال بعدَ السّؤال لكسب الوقت:

ـ وما هذا الجرسُ الذي على ركبتك؟

ـ هذا؟ إنّه لعدم إزعاجي.

ـ وكيف ذلك! لِعدمِ إزعاجك؟

نظرَ إليه فوشليفان العجوز باسماً وقال: «هذا البيتُ لا يضمّ سوى النّسوة وصبايا كثيرات. ويبدو أنّه من الخطر أنْ يُصادفنني، فهذا الجرسُ للتّحذير إذ عندما آتي يَذْهبن.

ـ وما هذا البيت؟

ـ إنّك تعرفُ ذلك جيداً.

ـ لا إنّني لا أعرف.

ـ حسناً إنّه دارُ راهباتِ بيكييس الصّغير.

عاد جان فالجان إلى الحديث ببطء: «أيها الأب فوشليفان، لقد أنقذتَ حياتَك.

ـ هذا صحيحٌ وأنا أوّل مَنْ تذكّر ذلك.

ـ حسناً بوُسعك أنْ تفعلَ لي اليوم ما فعلتُه لك بالأمس..

أخذَ فوشليفان في يديْه الهَرِمتينِ المرتعشتيْن يديْ جان فالجان الصّلبتيْن وبقيَ لحظةً دون أنْ يقوى على الكلام. ثم صاحَ أخيراً: «إنّ هذا سيكون فرحةً كُبرى بالنّسبة لي. أنا تحت أمرِكَ يا سيّدي العمدة فما الذي تُريدُ أنْ أفعله؟

ـ سوف أشرحُ لك ذلك. لديك غرفة.

ـ لديّ دارٌ صغيرةٌ هناك في زاويةٍ لا يراها أحد، وهي تضمّ ثلاثَ غرف.

كانت الدّار القديمةُ مختبأةً جيداً. فقال جان فالجان: «حسناً، إنّني أطلبُ منكَ الآن أمريْن.

ـ قُلْ يا سيدي العمدة.

ـ أوّلاً لا تحاولُ معرفةَ المزيد.

ـ كما تشاء. إنّني أعرفُ أنّه لا يُمكنك أنْ تفعلَ سوى الخير وأنّك كنتَ دوماً من رجالِ الله. ثم إنّكَ أنتَ الذي وظّفتني هنا وهذا يعنيك. إنّني تحتَ تصرّفك.

ـ اتّفقنا. والآن تعال معي فسنذهبُ لإحضار الطّفلة.

ـ آه! هناك طفلة!

لم يُضفْ فوشليفان كلمةً واحدةً بل تَبع جان فالجان كما يتبعُ الكلبُ سيّده.

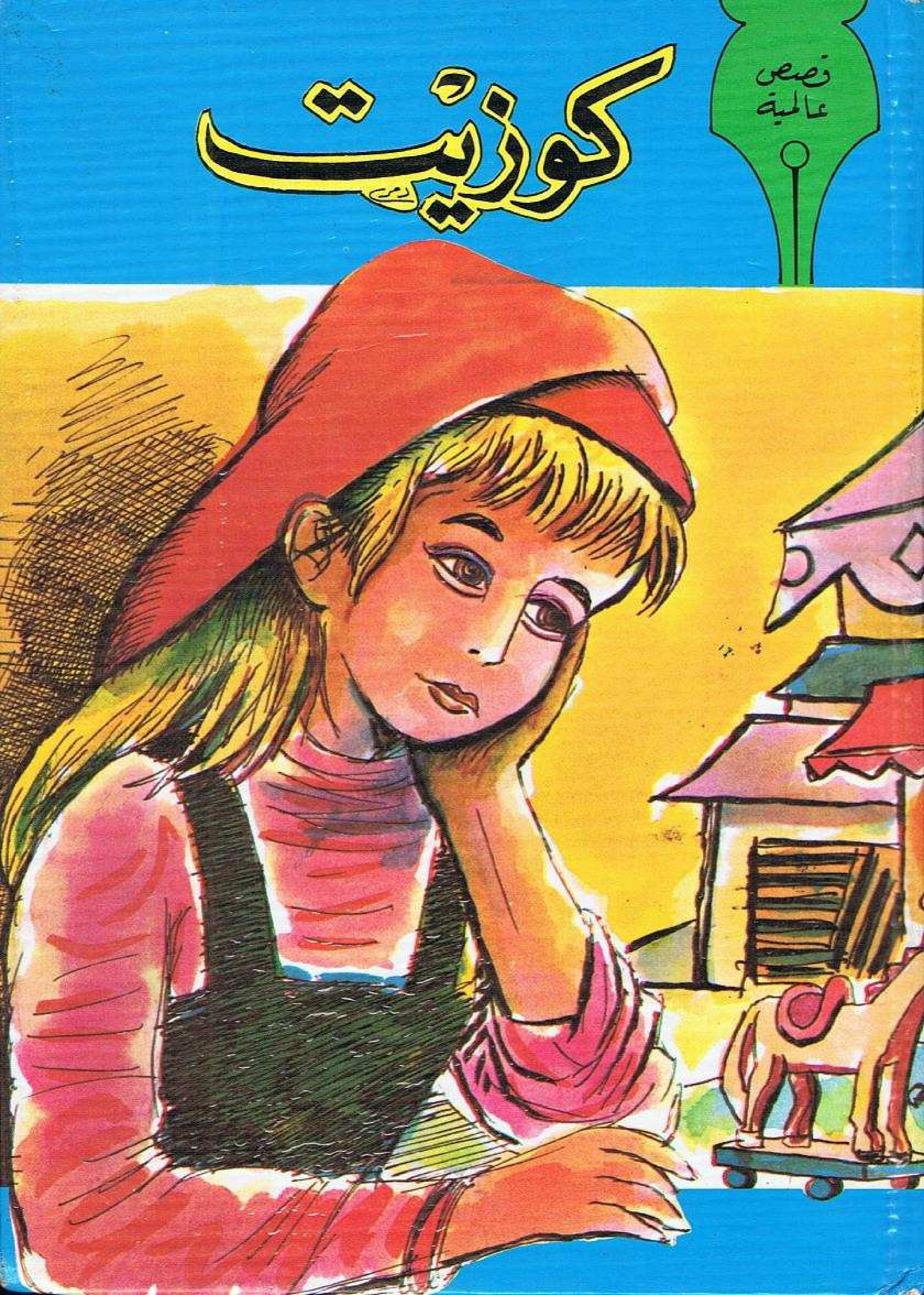
بعد أقلّ من نصفِ ساعة، كانتْ كوزيت ترقدُ في سريرِ

البستاني العجوز أمامَ النّار وقد عادَ إليها لونُها الوردي. أمّا جان فالجان ففد عادَ إلى ارتداء ربطةِ عُنقِه وسترته وعثرَ على قبّعتِه التي قذفَ بها من فوقِ السّورِ فالتقطها. انتزعَ فوشليفان جرسَه الصّغير وعلّقه على مسمار. ثمّ أخذَ الرّجلان يتدفآنِ أمامَ طاولةٍ وضعَ عليها فوشليفان قطعةً من الجبن وشيئاً من الخبز وزجاجةَ خمر وقدحيْن. ثم قال لجان فالجان وهو يضعُ يدَه على ركبته: «آه أيها الأب مادلين! أنتَ لم تتعرّف عليّ فوراً. إنّك تُنقذُ حياةَ النّاس ثم تنساهم. أوه! إن هذا لسيء. أمّا هم فإنّهم يذكرُونك وسترى. سوفَ أجعلهُم يستخدمونكَ هنا وسأقول إنّك أخي وإنّ كوزيت هي حفيدتُك.» هذا ما حصلَ وستنقضي عدّةُ سنواتٍ بسلام.

تابع احداث هذه الرواية المثيرة

في الجزء الثالث

«جافروش»


قصص
عالمية
كوزيت